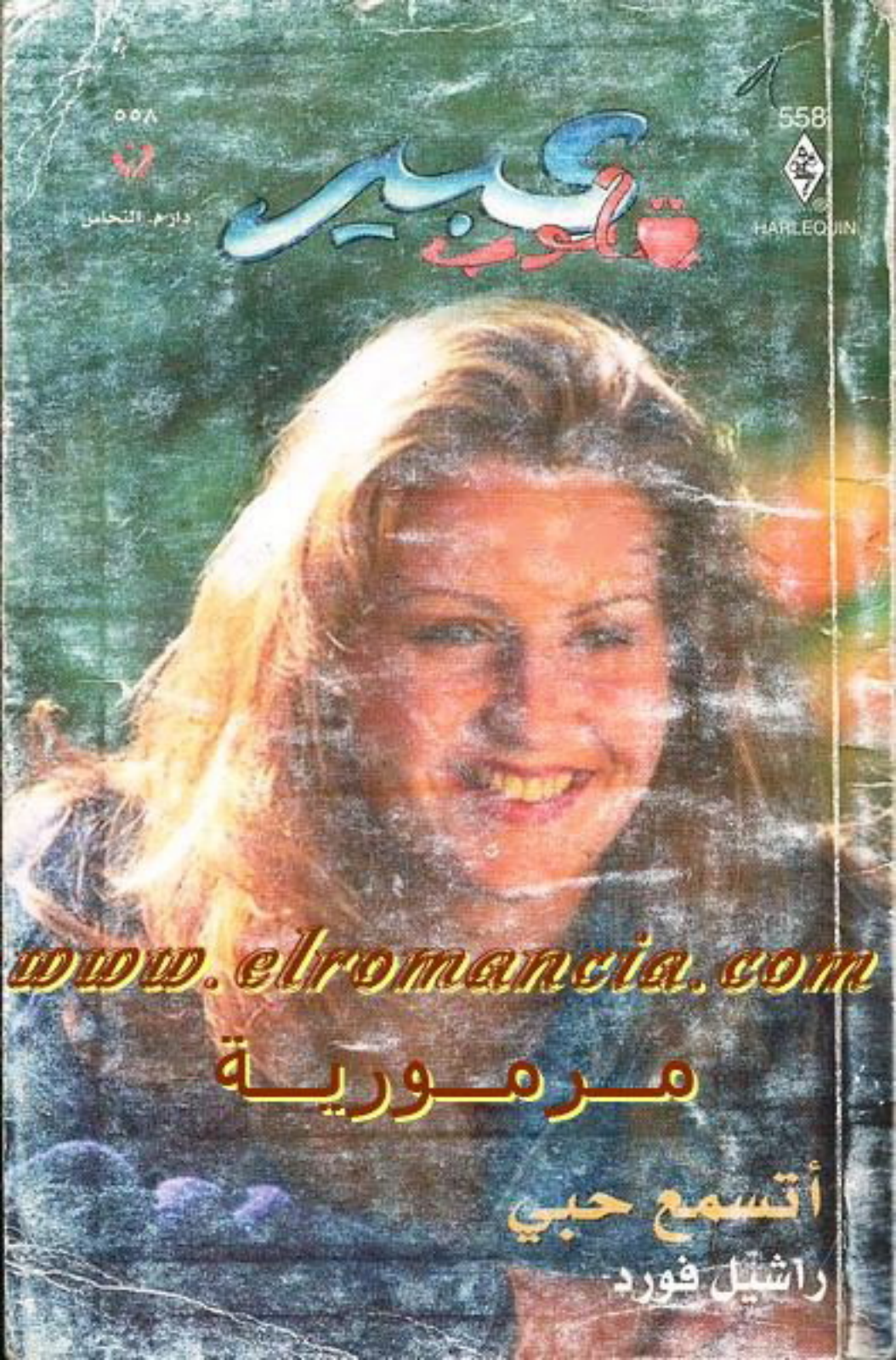

558
٥٥٨
عبير
HARLEQUIN
www.elromancia.com
مرمورية
أتسمع حبي
راشيل فورد

أتسمع حبي

تحاول تامسن حماية ارضها بكل ما أوتيت من وسائل، لكن زاك مصر على استرجاع هذه الارض بعدما باعها والده بسعر زهيد الى والد تامسن. وتبدأ المشاكل والمحاربة الكلامية بينهما الى ان ينتصر احدهما اخيراً.

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان: ١ ريال - تونس ٢ دينار

قالت:« حسناً، ليس هذا سبباً يجعلك تجيء إليَ، على كل حال كان ذلك فقط المرحلة الثالثة من التمهيد لما تريد، أليس كذلك؟ المرحلة الاولى كانت مساعدتك لي على توليد النعجات، والمرحلة الثانية هي اخذك لي الى نزهة جوية معك في البالون ... وذلك لكي تدير رأس طفلة بسيطة مثلي.»

حاول زاك مقاطعتها، ولكنها تابعت تقول:« والآن هذه هي المرحلة الثالثة والتي ستجعلني فتاة مطيعة. كان عليَ ان اتكهن بذلك من قبل، طبعاً ... فقد كنت اعلم طول حياتي أي أناني هو انت.»

www.liilas.com

راشيل فورد

راشيل فورد ... ولدت في بلدة كوفنتري، سليلة لأسرة عريقة في الزراعة في منطقة ووروكشاير، تعرفت الى زوجها في جامعة بيرمنغهام، وهو الآن محاضر رئيسي في معهد عال للحرف والفنون، وقد علّمت راشيل وزوجها في المدارس لعدة سنوات بعد زواجهما، وقد قاما باجازات اسطورية في مكسيكو، وكذلك في فنزويلا والإكوادور اثناء الثورات والانقلابات، وقد انجبت ابنتيهما في انكلترا، بعد ذلك اتخذت راشيل مهنة الكتابة والتي كانت تستمتع حقاً فيها... وكانت اولاً، تكتب قصصاً للصغار، ثم اخذت تكتب الروايات.

قلوب عبير ٥٥٨

khouloub Abir 558

أتسمع حبي

راشيل فورد

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

انتبه ألا تبتاع هذه الرواية من غير غلاف لأنها قد تكون مسروقة، فيجب إبلاغ الناشرين لأن الكتاب الذي لم يبع، يجب إتلافه. فأي من الكاتبة أو الناشرين لم يتقاضوا ثمناً لهذه النسخة المسروقة.

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

MAN OF ROCK

Copyright © By Rachel Ford 1992

ISBN 0-373-11479-6

Mills & Boon first edition October 1992

عنوان الطبعة العربية الأولى عن دار م. النحاس

أتسمع حبي بقلم: راشيل فورد

ترجمة: بلقيس حوماني

سلسلة قلوب عبير ٥٥٨

حقوق النشر باللغة العربية محفوظة ومحصورة في جميع البلدان لدار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات — بيروت (دار م. النحاس) بترخيص من هارلكوين انتربرايزس ليمتد (Harlequin Enterprises Limited).
جميع الحقوق محفوظة. باستثناء استعماله في أي مرجعية، يمنع استنساخ هذا الكتاب أو استعماله كلياً أو جزئياً بأي شكل وبأي جهاز من الأجهزة الالكترونية أو الميكانيكية أو الوسائل الأخرى، المعروفة الآن أو التي يتم في ما بعد اختراعها، بما في ذلك الوسائل الزيروغرافية والتصوير والتسجيل أو تخزين أي معلومات منها أو استعادتها بأي جهاز من الأجهزة، من دون الحصول على إذن من الناشر.
كل شخصيات هذا الكتاب ليس لها وجود خارج خيال الكاتبة، وليس لها أية علاقة بأي شخص قد يصدف ويتشابه اسمه مع أحد الأسماء في الكتاب ولا تستند شخصيات الكتاب، أو الأسماء التي تحملها إلى أية شخصية تعرفها، أو لا تعرفها الكاتبة، بل كل أحداث الرواية هي من نسج الخيال الصرف.

العنوان: دار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات — بيروت — لبنان شارع فردان بناية رضوان الطابق التاسع: ص.ب: ١١/٩٧١٨ — فاكس: ٧٤٣١٣١ (٠١) — هاتف: ٧٤٣١٣٣ — ٧٤٣٦٣٤ (٠١) — ٢١٦٢٩٣ (٠٣)

عزيزي القارىء

يسعدنا ان نعيد اليك سلسلة عبير التي طال غيابها عن ساحتك الممتعة، وهي إذ تطل عليك من جديد بحلتها الكاملة لتضفي برونقها المميز شغفك للقراءة وحبك للمطالعة.

ونحن، إذ نعيد اليوم هذه السلسلة الى مسرحها السابق، نعدك بانتظام اصداراتنا من عبير بمعدل ٥ روايات شهرياً لتكون سلواك في أوقات متعتك الخاصة.

كما نعدك ببذل الجهد المتواصل من أجل إطلاعك دائماً باللغة العربية على أحدث ما يصدر في هذه السلسلة العالمية وعن لغة الأصل: الانكليزية.

إن رفع وتيرة الاصدار والزيادة في تنويع المواضيع وألوانها إنما هما هاجسنا الدائم.

ولا تنس يا عزيزي القارىء أن طبعة قلوب عبير هذه التي أردناها لائقة بك وبذوقك، إنما هي النسخة الأصلية.

وقوفك إلى جانبنا، إنما يعبر عن اخلاصك لنفسك وذوقك وحرصاً على وقتك الذي نوظفه لك في مجال أدبي ثقافي، مفيد وممتع.

إن وقوفك معنا يوفر لنا الدعم والمناخ اللذين لا بد منهما للمضي قدماً في رحلة العطاء الدائم والتجديد والتنويع...

الناشر

الفصل الأول

تحطم غصن عندما داست تامسين عليه بقدمها، فجمدت في مكانها حابسة انفاسها، ولكن لم تبدر أية ردة فعل من الرجل ذاك، بل بقي مستنداً إلى جذع الشجرة، وهو يحدّق في مياه الجدول المتدفقة.

وفجأة، خرج القمر من خلف مجموعة من الغيوم فتراجعت بسرعة إلى ظل شجرة السنديان بجانبها، ونظرت إلى الرجل مرة أخرى، ولكنه كان ما زال شبحاً مبهماً اكثر دكنة من النباتات القاتمة حوله. كانت على وشك ان تصطدم به لولا ان حركة بسيطة نبهتها إليه بينما كانت تقترب منه.

أرهفت حواسها ظلمة الغابة حولها ما جعل من أية حركة بسيطة، مثل احتكاك غصن بآخر، أو احتكاك أوراق الشجر فوق رأسها، أو حركة خفيفة لمخلوقات ضئيلة تتسلل بين الأعشاب، جعل كل ذلك يتضخم في مسامعها عشرات المرات.

ونعقت من بعيد بومة بصوت جعل جلدها يقشعر فزعاً، ولكن أهي بومة حقاً، أم هو لص متسلل في هذا الليل... أم هو عدو؟ ولكن لم يكن ثمة صوت آخر، وهكذا عادت خفقات قلبها إلى طبيعتها.

لفت وشاحها الأسود تخفي به قسماً من وجهها، ثم تركت ظل الشجرة واخذت تركض بصمت مجتازة الياردات

القليلة من الأرض، حيث كانت الأعشاب تلمع باللون الفضي في ضوء قمر، إلى حيث وصلت إلى جذع شجرة أخرى.

كان بإمكانها ان ترى الرجل الآن بوضوح تام، كان ظهره اليها مستغرقاً في تأمل الصخرة التي كانت الطحالب تغطيها والقائمة على ضفة جدول المياه، يا له من أحمق، فقد كان يجلس من دون احتراس، وقد بدا واضحاً انه يظن نفسه آمناً تماماً في هذا الركن من الغابة، ولكن تامسن اقتفت أثره إلى هذا المكان لأنها كانت تعرف وتعشق كل إنش من هذه الأرض، منذ طفولتها.

إستلت البندقية من حزامها خلسة، ثم مدت يدها إلى سترتها فأخرجت منها الرصاصة ووضعتها في الخزان، ثم أزاحت بقدمها بخفة، غصناً جافاً آخر، وعادت تخرج من مخبأها ثم تسير بشكل جانبي كيلا يراها.

رفعت معصمها الأيسر، ثم سددت فوهة البندقية والتمع المعدن في ضوء القمر، وللحظة إرتجفت يدها، فقد كان جاعلاً من نفسه هدفاً سهلاً لها، ولكنها ما لبثت ان نبذت ذلك الشعور بوخز الضمير الذي تملكها، وعادت تسدد البندقية مرة أخرى، ثم ضغطت بإصبعها على الزناد.

لكن في نفس الوقت، إذا به يستدير بحركة سريعة، متأهباً للقفز في اتجاهها، ولكن بعد فوات الأوان إذ ان الطلقة اصابته في صدره مباشرة.

وصدرت عنها صيحة: «ها، انك ميت الآن.» ولكنها ما ان ألقت نظرة على وجه الرجل، حتى تلاشت صيحة الانتصار لتحل مكانها رجفة ذعر ثم ألقت البندقية من يدها واستدارت لتهرب، ولكنه كان أسرع منها هذه المرة.

«أية لعبة تظنين نفسك تقومين بها؟»

استطاعت ان ترى بوضوح الصباغ الأحمر الذي سال من رصاصتها والذي تناثر رشاشه على كنزته ذات اللون الأزرق الفاتح وكذلك عينيه ووجنته اليسرى، وكانت عيناه أكثر برودة مما كانت تعهدهما: «والآن أي مشاغبة أنت.»

«مر... مرحباً يا زاك.»

«تامسين... تامسين وستماكوت؟ يا للحمقاء الصغيرة، ما الذي جعلك تقومين بذلك؟»

وأخيراً، استطاعت ان تتمالك نفسها، فأجابت ببرود: «المفروض ان ألقي انا عليك هذا السؤال.»

تابعت تقول: «اظنك تعلم بأنك تتعدى على أملاك الغير، فإن أرضك تنتهي حدودها عند الجدول.» وكانت تقول له هذا بلهجة رسمية باردة.

فقال من دون اكتراث: «آه، نعم لقد نسيت ولكن أسرتك، على كل حال هي صاحبة لسكومب منذ متى... أربع سنوات؟ ولكننا امتلكناها منذ خمسمائة عام قبل ذلك.» وعندما حملقت مندهشة، تابع يقول: «ما الذي ستفعلينه بهذا الشأن؟ قومي بالمزيد من أساليب رامبو وتخلصي مني دون مساعدة من أحد.»

ردت عليه بحدة: «نعم، فهذا يعجبك، أليس كذلك؟ هل لكي امنحك فرصة أخرى لتعاملني بها بهذه الخشونة والعنف؟.»

فقال عابساً:

«هذا ما أريد القيام به، فأنت لا تعلمين كم أنت محظوظة، فأن ألتفت فأرى شخصاً متنكراً وفي يده

بندقية قادماً نحوي... لقد تدربت على كسر العنق في موقف كهذا.»

وعندما أخذت تنظر متوجسة، تابع يقول وهو ينظر إلى الملابس العسكرية التي ترتديها، بنفور واضح: «والآن، هل تتكرمين بأن تخبريني عن السبب الذي يجعلك تتبخترين في أنحاء غابة لسكومب مرتدية مثل هذه الملابس؟»

فقالت بغطرسة: «انني في الواقع، أقوم بدور في لعبة الحرب.»

ضحك ساخراً: «ماذا؟ حسناً، هذا ليس اكثر مما توقعت أن يكون، فقد كنت دوماً تتشبهين بالغلمان.»

غاظتها سخريته، فقالت تنتهره عابسة: «والآن، اسمع...»

«حتى بالنسبة اليك، يبدو قيامك بدور الجندي هنا وحدك، أمراً شاذاً.»

«أنا لست وحدي، فهناك مجموعتنا كلها.»

وكأنما لإثبات كلامها، سمعا صوتاً أشبه بوقع اقدام فيلة قريباً منهما، تبعه صهيل حصان: «حسناً، لا بأس إذن، فكل مجموعتك في غابة لسكومب يمثلون دور جنود.»

قالت بحدة: «آه، آسفة، فهذا طبعاً، شيء يبدو تافهاً بالنسبة إليك، لقد نسيت ان زاك ترنشارد هو جندي حقيقي، من كوماندوس البحرية، أليس كذلك؟»

«انك مختلفة عن الزمن، يا حلوتي، ذلك انني... تركت البحرية منذ عامين.»

فقالت بدهشة: «تركت؟ ولكنه كان حياتك كلها... فهو كان الشيء الوحيد الذي يهمك.»

اضافت ذلك بمرارة، ولكنه لحسن الحظ، لم ينتبه إلى

كلماتها الأخيرة، إذ كان يقول: «لقد تركت البحرية، وأنا الآن اعمل في لندن.» شعرت وهو يقول ذلك، بالإحباط والغضب خلف لهجته الكئيبة.

لم يكن أي من هذه الأخبار قد وصل إلى القرية، ذلك ان عندما خرج زاكاري، أو زاك كما كانوا ينادونه، من القرية للمرة الثانية والأخيرة، وذلك منذ خمس سنوات، كان حقاً قد قطع ما بينه وبين ماضيه بأجمعه، وهكذا في هذه الحالة...

«ولماذا عدت الآن؟»

«جئت لأزور والدي، لا بد انك سمعت بأنه مريض.»

«نعم، لقد سمعت.»

ولكنها لم تضف إلى قولها هذا انها رفضت ان تدع خبر مرض جايمس ترنشارد الذي جعله طريح الفراش إثر جلطة دماغية، لم تدعه يؤثر عليها بأي شكل، أو ان القرية قد اهتمت بالقطيعة النهائية بين الأب وابنه وقررت تبعاً لما قالته خادمة عندهم، بأنه حتى الجلطة التي أصيب بها الوالد لن تجعل زاك يعود مهما كانت الظروف.

قال: «على كل حال، كنت قادماً لرؤيتك، انني أريد ان اتحدث اليك.»

«آه، ولكن لا شيء بيننا يستدعي الحديث عنه.»

«بل اظن هذا، ان لديّ عرضاً عملياً بسيطاً لأجلك.»

«لا يهمني أي عرض منك... أو من والدك.» انفجرت بهذا القول، ولكنها ما لبثت ان عضت شفتها، مرغمة نفسها على عدم إبداء عدائها السافر.

حدق إليها، وكأنما فوجيء بالمرارة التي بدت في

لهجتها، ولكن قبل ان يتمكن من الجواب، إذا بشخص يظهر إلى العيان ثم يختفي في الظلام، يتبعه شخص آخر وهو يكلمه بعنف بالإشارات.

انتهزت تامسين الفرصة لتقول: «لا... لا يمكنني الحديث إذ عليّ ان أعود إلى البيت لأعد المرطبات.»

بدا وكأنه يهم بمناقشتها، ولكنه عاد فهز كتفيه: «لا بأس، سأراك في وقت آخر.»

«لقد اخبرتك بأن لا شيء بيننا يستدعي الحديث، فهل لك ان تدع هذا.»

وقبل أن يجيب، استدارت واخذت تسير في طريق العودة.

«أيها الغلام الجندي.»

التفتت على كره منها لترى زاك ما زال واقفاً حيث تركته: «لقد نسيت هذا.»

وبعد ذلك بلحظة، كانت بندقية الدهان تستقر عند قدميها، فالتقطتها ثم تابعت سيرها بينما ضحكاته تتبعها.

• • •

«الوداع يا تامسين، إلى اللقاء الشهر القادم.» ووقفت هي عند عتبة البوابة تلوح بيدها بينما كانت حافلة طلاب الجامعة تبتعد نحو الطريق العام، ثم دفعت ببطء بوابة المزرعة ووقفت مستندة إليها، كان الطلبة مرحين للغاية، وكان البعض منهم من عملائها المفضلين... ولكنها أحياناً، رغم انها لم تكن تكبر معظمهم بأكثر من عام أو نحو ذلك، كانت احياناً تجد من الصعب عليها تقبل حيويتهم ونشاطهم الزائد.

هذا اليوم وقد استيقظت كالعادة عند بزوغ الفجر، حيث عليها، مرغمة أن تساعد أحد الفرقاء عندما يصلون، كانت تشعر بوهن في جسمها.

عليها ان تغسل كل ملابس الجنود القطنية، وإلا فلن تكون جاهزة لأجل مجموعة المزارعين الفتيان يوم السبت، ونظرت إلى ملابسها بأسى، وهي ترى البقع القرمزية على سترتها، كانت في العادة، عندما تشترك معهم في لعبة الحرب، كانت معرفتها التامة لكل شجرة وأجمة في الغابة، تحميها من ان تؤسر أو تقتل ولكنها هذه الليلة عندما اتجهت نحو منزل المزرعة، كانت وقعت في كمين للأعداء، ذلك لأن ذهنها كان مشغولاً بأشياء أخرى، حسناً، بشيء آخر في الواقع، ألا وهو زاك ترنشارد، وتجهم وجهها وهي تفكر في هذا.

فيما بعد، حتى وهي تحرك الحساء في القدر، وتوزع الجبن وكرات الخبز في الأطباق، لم تكن تستطيع ان تفكر في شيء سواه، آه، تباً له، لماذا عاد؟ والأهم من ذلك، ما هو ذلك العرض العملي البسيط الذي سيقدمه اليها؟ حسناً، فقد قالت له بكل وضوح انها لا تريد العمل معه، وربما سيفهم من رفضها.

اخيراً اغلقت البوابة واستدارت نحو المنزل، ولكنها بالرغم من التعب الذي كانت تشعر به، وقفت عدة لحظات تاركة مشاعرها المألوفة نحو هذا البناء القديم تتملكها ما جعل تعبها يتبدد للحظة، مزرعة ويذرتور! البيت المستطيل وكأن جدرانه الصوانية وسقفه المسقوف بالقش متجذرة فيه، وكان بإمكانها ان ترى خلفه الجانب الصخري من

المزرعة والذي كان عبارة عن تل بقي مدة خمسة قرون يحميها من الرياح الشمالية القاسية التي تهب كل شتاء عبر حقول قرية دارتمور المكشوفة.

امتلأ قلبها فجأة بحب تملكي عنيف، مهما كلفها الأمر، ومهما كانت تضحياتها، فهي لن تدع هذا المكان يذهب من يدها، خصوصاً وقد وعدت والدها بذلك. وابتسمت بجفاء. تامسن وستماكوت ستقاوم العالم اجمع... فهل هذا ما سيكون؟ هذا ممكن جداً، اخذت تفكر بذلك بعد أن تذكرت الرسالة التي تلقتها من البنك هذا الصباح فقط، حسناً كانت في جيبها أوراق نقدية بقيمة خمسين جنيها، وهكذا ستتمكن على الأقل من سداد الفاتورة لأولئك المعتوهين.

أثناء عبور الفناء، تصاعد نباح الكلب جوس من وراء باب الإصطبل القديم. وكانت تامسن تحتجزه عادة كلما جاءت المجموعة، فتقفل عليه بالمفتاح. ذلك لأنه كان عنيفاً جداً في المحافظة عليها، فكان يهجم نحوها ثائراً كلما أسروها، أثناء تمثيلها لعبة الحرب، أو تظاهروا بقتلها، ومن المؤسف انه لم يكن معها هذه الليلة، ولو كان ربما كان سيرغم زاك ترنشارد على العودة إلى بيته عابراً الجدول.

فتحت الباب فقفز منه الكلب الضخم الأسود والأبيض وهو يهز ذيله، ولكنه ما لبث ان جمد مكانه وهو يزمجر بشكل ينذر بالشر، وإذ تتبعت نظراته، تشنجت قبضتها على مقود الكلب، بشكل لا إرادي، بينما تملك الخوف نفسها.

«من هناك؟»

كان الرجل جالساً على المقعد الحجري في ظل

السقيفة، ولكنه كان الآن ينهض واقفاً ثم يتقدم منها وضوء القمر يغمر وجهه وشعره، بينما ارتفعت زمجرة جوس حتى اصبح نباحاً لم تكد تامسن تقوى على كبحه.

تقدمت إلى وسط الفناء وهي تكبح جماح الكلب، ثم وقفت تنظر إلى الزائر.

«كيف دخلت إلى هنا؟»

«من البوابة، طبعاً.» وأشار زاك إلى ناحية الأرض المغطاة بالأعشاب: «لم أحب ان اقاطعك... فقد كنت مشغولة بتوديع جنودك.» ونظر إلى الكلب جوس بإمعان: «انه كلب ممتاز حقاً، هذا الذي لديك هنا.»

«نعم، ولا أدري إلى متى سأبقى متمكنة من كبح ثورته.» قالت ذلك، وعندما رأت انه لا يهم بالرحيل، اضافت تقول بلهجة ذات معنى: «انه لا يحب الغرباء.»

ولكن زاك لم يزد على أن ضحك قائلاً: «غرباء؟ ما هذا يا تامسن؟ انني اعرفك منذ كان طولك لا يكاد يتجاوز نصف المتر، وأشبه بالبعوضة في صغر حجمها، فلا تتصرفي معي إذن بصفة صاحبة الأملاك.»

ردت عليه بحدة:

«كلا، بل سأترك سيادة الأملاك لك أنت ولبقية أسرة ترنشارد.» وبالرغم من نيتها السابقة في ان لا تظهر أية عداوة بالنسبة لهذا الرجل، فقد كادت تسمع نبرة المرارة في صوتها مرة أخرى، وهكذا تابعت تقول ببرودة: «على كل حال، ما دمت هنا الآن، ما الذي تريده؟»

«لقد سبق واخبرتك من قبل، بأنني أريد ان أكلمك مرة أخرى، حسناً، هذا هو الأمر.»

«إنني آسفة، ولكن عليك ان تنتظر حتى غد، فالوقت لا بد تجاوزَ العاشرة والنصف، وأنا متعبة للغاية.»

«نعم، هذا ما يبدو عليك.» لم يكن في صوته أي أثر للسخرية كما ظنت، بينما كان هو يتابع قائلاً: «ولكن ما أريد قوله لن يستغرق وقتاً طويلاً، يا تامي...»

تامي... انه اسم التدليل القديم لها والذي لم يكن يستعمله احد خارج الأسرة ما عداه هو وسارا.

فقالت ببرودة: «ان اسمي هو تامسن، ليس ثمة من يدعوني تامي الآن.»

«... وهكذا إذا دعوتني فقط للجلوس على الشرفة، إلا إذا كنت طبعاً تريدين البقاء هنا طوال الليل.»

استند إلى الجدار وشبك ذراعيه، أحست وكأن ثمة معركة صغيرة بين الارادتين قد ابتدأت تلوح، وأخيراً قالت وقد تلقت هزيمتها بما أمكنها من الكياسة: «لا بأس، تفضل بالدخول.»

تقدمت وهي ما زالت تقبض على مقود الكلب جوس، ففتحت باباً صغيراً والذي كان يؤدي مباشرة إلى الشرفة، وتبعها هو حانياً رأسه، جرت الكلب إلى سلته، وعندما رأته ما يزال واقفاً ينظر إلى زاك بارتياب، قالت له: «لا بأس، يا جوس، انه... صديق.»

فقال زاك: «هذا ما أرجوه، يا تامي.» لم تقل شيئاً، بينما تابع هو يقول: «وعلى كل حال، فقد كنا دوماً اصدقاء، نحن الثلاثة، أليس كذلك؟»

أتراه فاقداً للاحساس تماماً؟ أم أنه يحاول متعمداً ان يوهن من عزيمتها بكلماته هذه التي تبدو عفوية؟ وقررت

ان الفكرة الأخيرة هي الصحيحة، ولهذا لم تقل سوى: «كان ذلك منذ وقت طويل، يا زاك.»

«نعم، منذ وقت طويل جداً.»

كان صوته رزيناً، ثم سكت لحظة طويلة وهو يجول بنظراته في أنحاء المكان حيث كان يشعر فيه، ذات يوم، وكأنه في بيته.

اخذ يكرر بنعومة: «منذ وقت طويل جداً، ولكن لا شيء قد تغير.» ثم وكأنه يريد ان يتحرر من ذكريات تملكته موقتاً، قال لها ضاحكا: «حتى أنت لم تتغيري. ما الذي جعلك تجولين في الغابات وكأنك في العاشرة من عمرك؟»

«لقد سبق واخبرتك بأنني كنت أؤدي دوراً في لعبة الحرب، لقد اجّرت غابة لسكومب لمجموعة تريد تمثيل ذلك، فهذه الألعاب هي طراز شائع هذه الأيام.»

«هذا ما سمعته.» وكان صوته ساخراً نوعاً ما.

«كانوا هذه الليلة من الطلاب... ثلاثون شخصاً، بل تسعة وعشرين، وكانوا بحاجة إلى شخص لإكمال العدد فتطوعت انا معهم. انني لا اشترك مراراً كثيرة في هذه الالعاب، طبعاً.»

«اخبريني، ياتامي، متى ستكبرين؟»

نظرت من دون ان تطرف عيناها، مصممة على أن لا تهتم لأي شيء يقوله: «آه، لقد كبرت، يا زاك... وهذا شيء طبيعي بعد تلك السنوات، ولكن، نعم.» وتابعت بسرعة قبل ان يقاطعها: «ان في هذا تغيير من عمل المزرعة الرتيب، وبجانب ذلك...» ثم سكتت فجأة.

«آه، لا شيء.»

كانت على وشك القول بأن وجودها وسط مجموعة كبيرة مرحة صاخبة، حتى ولو كان ذلك لمدة ساعتين أو ثلاث فقط، فهو يخفف من شعورها بالوحشة التي اخذت تشعر بها غالباً في الأشهر الأخيرة. ولكنها لم تقل ذلك، فهي لم تكن تريد عطفاً من زاك ترنشارد.

كان طوال الوقت مستنداً إلى حائط الشرفة، ولكنه استقام الآن فجأة، ثم أخذ يعرج إلى حيث جذب كرسياً جلس عليه.

أخذت تنظر إليه بشكل خفيّ في البداية، ولكنه عندما جلس عابساً، كانت نظراتها إليه مكشوفة، كان واضحاً أنه يشعر بألم بالغ، كيف حصلت اصابته؟ أتراه تعثر في الغابة، بعد ان تركته، بفرع شجرة واقع على الارض، في ذلك الظلام؟ ربما.

أم ترى ذلك شيئاً أكثر خطورة؟ جرح دائم مثلاً؟ فقد كان قال انه ترك العمل في الكوماندوس بسبب إصابة حدثت له، وانقبض قلبها... فكيف استطاع ان يحتمل هذه الضربة؟

كان الآن جالساً تحت الضوء مباشرة، ولأول مرة ترى وجهه بوضوح. انه لم يكد يبلغ الثلاثين، ولكنه يبدو هذه الليلة اكبر بكثير، لم يبق من ذلك الفتى، الشاب الذي كانت تعرفه منذ سنوات طويلة، لم يبق منه سوى ذلك الزهو البادي في هيئة رأسه من الخلف. وفجأة إذا بها تشعر بلوعة عنيفة في داخلها.

لا بد انه رأى هذه النظرة في عينيها وإن لم يفهم سببها لحسن الحظ... لانه قال: «لا تقلقي، يا تامي فإن ساقي ليست دوماً سيئة إلى هذا الحد، كل ما في الأمر هو أنني تعبت من قيادة السيارة من لندن إلى هنا هذا المساء.»

ترددت قبل ان تقول وهي تنتقي كلماتها: «هل هذا سبب خروجك من البحرية؟»

فأومأ برأسه بحقد.

«ولكن كيف حدث هذا؟»

«لقد كنت ضابطاً في قوات السلام الدولية في الشرق الأوسط، ولكن المعنيين بالأمر لم يعجبهم ذلك.»

«آسفة لأجلك.» وكان هذا كل ما استطاعت قوله.

فقال باختصار: «ولكنني عشت، ولكن اثنين من رجالي لم يتوفر لهما هذا الحظ.»

كان صوته قاسياً، ولكنها أحست بالألم وراءه، وشعرت بالعطف يتملكها نحوه مرة أخرى، ولكن عليها ان لا تشعر بالشفقة على هذا الرجل... فهذا يضعف عزائمها، وبينما كانت تتصارع مع افكارها، ابتدأ بالقول: «تامي...»

لكنها قاطعته قائلة: «ما... ما زال ثمة شيء من الصباغ على وجهك.»

«أحقاً؟» وأخرج منديلاً مطوياً ومسح وجهه.

قالت بتردد: «لقد ذهب الصباغ تقريباً، اظنني اتلفت كنزتك.»

هز كتفيه بعدم اكتراث: «لا تهتمي بذلك.»

«ولكن هذا لم يكن ذنبي، في الواقع، كما تعلم، إذ ما كان لك ان تكون هناك.»

فقال بضيق: «والآن، لا تبدإي هذا الموضوع مرة أخرى، من فضلك.»

تابع بلهجة جدية: «كيف تديرين أمورك الآن، بعد ان اصبحت بمفردك؟»

«إذن، فقد سمعت، أليس كذلك؟»

«نعم، اخبرتني السيدة ميدوز عن والدك هذا المساء، كانت نوبة قلبية، أليس كذلك؟»

«في النهاية، نعم، هذا على الأقل، ما كتبه الدكتور بريدجز في شهادة الوفاة.» وكان صوت تامسن، وهي تقول ذلك، بارداً منخفضاً.

«انني شديد الأسف، يا تامي.»

«أحقاً أنت آسف؟»

قطب حاجبيه: «وماذا يعني كلامك هذا؟»

«آه، لا شيء.»

«وكيف حال سارا وارن؟»

جمدت يداها لحظة، وتبدلت اسارير وجهها.

«سمعت انها تزوجت.»

التفتت ببطء تواجهه: «ألم تسمع أيضاً انها ماتت؟»

الفصل الثاني

حملق زاك في تامسن وقد شحب وجهه للصدمة: «ماتت؟ ولكن متى؟»

فقالت بصوت جامد: «آه، السنة الماضية. في سبتمبر.»

«آه، يا تامي ما أفظع هذا بالنسبة إليك. أنت وسارا... كنتما دوماً صديقتين عزيزتين.. اسمعي، يبدو واضحاً أنك أمضيت وقتاً صعباً، مؤخراً... فقد فقدت أولاً أخلص صديقاتك، ثم بعد ذلك والدك ولكن ما الذي يضايقك الآن؟»

«لا شيء.»

فقال بغضب: «هيا، لا أريد منك جواباً كهذا. لقد أخذت تعاملينني بكل حدة وسوء طباع وذلك منذ وصولي إلى هنا.»

قالت متحدية: «قلت لك لا شيء. وما الذي يمكن أن يكون هناك؟»

قال: «ولكن ماذا حدث لسارا؟ هل ماتت بحادث اصطدام؟»

«كلا لقد كانت تزوجت مايك يوبرايت. هل أخبروك بذلك، أيضاً؟»

فأومأ ايجاباً.

«حسناً. إنهما سرعان ما وجدا أن العمل في المزرعة هنا لا يكسبهما كثيراً... وهكذا سافرا إلى استراليا للعمل في الزراعة وما لبثت أن اجهضت ثم ماتت قبل أن يتمكن

www.elromancia.com

مايك من احضار الطبيب.» وبالرغم من تصميمها على البقاء مسيطرة على نفسها، فقد ارتجف صوتها قليلاً وهي تتابع: «وهذا كل شيء.»

أنهت حديثها وقد تراجعت بذاكرتها إلى صبيحة يوم ذلك الزفاف التعس، حيث وقفت هي وسارا متواجهتين وذلك في إحدى غرف منزل مزرعة أسرة سارا. حيث تامسن كانت وصيفة العروس.

ومرة أخرى وجدت نفسها تقول لها بإلحاح: «إنك ستتزوجين مايك وليس زاك. فانسيه، يا سارا فهو لا يستحق هذا منك.» وعندما أخذت صديقتها تحدق فيها صامتة، تابعت تقول: «وإلا عليك أن توقفي كل إجراءات الزفاف هذه.»

لكن سارا لم تجب بسوى ايماءه خفيفة من رأسها، ثم حملت باقة الأزهار البيضاء...

وكان زاك يقول: «كلا، من الواضح أن هذا ليس كل شيء.» ففوجئت بصوته وعادت الى الواقع، وسمعته يعود إلى القول بلهجة أكثر رقة: «ياليتك تخبرينني بكل شيء، يا تامي فقد يكون في هذا فائدة.»

ولكنه لن يحصل منها على هذه القصة الحزينة باكملها... فهذا سر سارا، الفتاة التي تكبرها بعامين والتي كانت نشأتهما معاً منذ الطفولة إذ كانتا جارتين في مزرعتين متقابلتين. لقد كانت صداقتهما تغلبت على كل محنة وذلك منذ كانت في الثالثة من عمرها، تلعب في فناء المدرسة، وإذا بها تفرغ على رأس سارا وثوبها الوردي، علبة دهان صندوق البريد الأحمر اللون.

وقد توطدت صداقتهما بعد موت والدتها المبكر. وعلى مر السنوات، ازدادت صداقة الفتاتين إلى أن أصبحت سارا بالنسبة إليها هي الأخت التي طالما كانت تتمناها...

كلا. يجب أن لا يعرف زاك مبلغ ما كان لرحيله من تأثير على سارا، وردت على كلامه بجمود: «ما الذي كنت تريد مكالمتي لأجله؟»

هز كتفيه قائلاً: «لا بأس فليكن ما تشائين. إنني أريد أن استعيد مزرعة ويذرتور.»

«ماذا؟»

وجاء دورها لتندهش. هذا هو العرض الذي كان حدثها عنه هناك... في الغابة ولكن كيف يقول كلاماً كهذا بكل هدوء؟ هذه هي عادته، بالطبع وطريقته في النظر إلى الأمور. الأنانية، الهدوء، برودة النظرات...

كان ذهنها مشتت ولكنها لكي تعطي نفسها وقتاً للتفكير قالت: «ولكن والدك باعها لنا منذ أربع سنوات فقط.»

«نعم، وقد أدرك الآن أنه كان مخطئاً.»

«إنك تعني أن هناك من أقنعه بأنه كان مخطئاً.»

أطلق زاك ضحكة قصيرة جافة: «دوماً كنت فتاة حادة الطباع، يا تامي وأحيانا من الحدة بحيث يضرّ ذلك بمصلحتك.»

«وأنت تعني أن هذه إحدى تلك المرات.»

«بالضبط.»

«ولكن والدك لم يدرك منذ أربع سنوات، أن عمله ذاك كان خطأ، وذلك عندما وضع والدي أمام خيارين فإما أن يشتري المزرعة، وذلك بسعر الأرض في ذلك الحين، أو يخسر

استئجاره المزرعة والذي كان في يد أسرتنا منذ مئات السنين.»

فقال ببرودة: «من المؤكد أن معلوماتك خاطئة، فقد كان والدك في منتهى السعادة لامتلاكه المزرعة.»

«أظنها القصة التي أخبروك بها... وهي التي اخترت أن تصدقها. صحيح أنك كنت بعيداً عن القرية تذهب وتجيء يا زاك وذلك منذ كنت في السابعة عشرة ولكنك من أسرة ترنشارد، ولهذا لا بد أن تكون نظرتك إلى الأمر بهذا الشكل، أليس كذلك؟»

«ليس بالضرورة، فأنا لم أكن أوافق أبي دوماً على وجهة نظره وأنت تعلمين ذلك.»

«وأظنه لم يخبرك بأن القلق لاستمرار سير المزرعة هذا إلى ضخامة القرض الذي اضطر والدي إلى اقتراضه من البنك ومع كل ذلك هبوط الأسعار كل هذا قتله في النهاية.»

اغرورقت عيناها بدموع محرقة سرعان ما غالبتها. إنها لن تبكي أمامه.

جلس زاك على كرسي، مشيراً إليها بحزم، بأن تجلس قبالته. ترددت في البداية ثم عادت فجذبت كرسياً جلست عليه.

قال وكأنه توصل إلى قرار ما: «مهما كانت الحقيقة فأنت لا يمكنك إدارة المزرعة بمفردك.»

«أنا لست بمفردي.»

«آه، ومن هو الذي يساعدك فيها، إذن؟»

«لقد أصرّ ماتيو على البقاء بعد موت أبي.»

فقال ضاحكاً: «أتعنين ماتيو هوسكنز؟ ما هذا يا فتاة؟ لا بد أنه الآن في التسعين من عمره.»

فقالت له بجمود: «إنه في الثالثة والسبعين.»

«حسناً، إذن أنتما الآن عبارة عن فتاة صغيرة ورجل مسن تديران هذه المزرعة. لم أعهدك حمقاء من قبل على الاطلاق يا تامي، ولكن إلى متى تظنين نفسك قادرة على الاستمرار بهذا الشكل؟»

ومن دون وعي منها، تحولت عيناها إلى الرسالة التي كانت تلقتها هذا الصباح. وتابع هو اتجاه نظراتها إلى حيث كانت الرسالة مسندة إلى إناء صيني على طاولة.

«لا أظن هذه بطاقة معايدة من مدير المصرف.»

فقالت بحدة: «لا تتدخل في ما لا يعنيك.»

ولكن الإحمرار تصاعد إلى وجهها رغماً عنها، فتابعت تقول بسرعة: «وعلى كل حال، فأنا لا أقوم بمعظم أعمال المزرعة المعتادة حالياً فقد بعت الجزء الأكبر من قطيع الأغنام...»

ولم تشأ أن تخبره بأن البيع هذا كان استجابة لأول انذار تلقته من البنك قبل العيد، بل تابعت تقول: «ولكنني احتفظت بالباقي، كما أنني ما زلت احتفظ بالأبقار.»

«الأبقار وبعض الأغنام أهذا كل شيء؟»

ردت بحدة وقد ساءتها لهجته المتعجرفة: «كلا، ليس هذا كل شيء. فأنا أقوم بأعمال متنوعة، وإذا كنت لاتعلم، فمالكو المزارع الباقين، يقومون عادة بذلك.»

«ما الذي يدور في ذهنك بالضبط، إذن؟»

«حسناً، إنني أفكر في تحويل المرعى إلى موقف دائم للعابرين أو ذوي الإقامة الموقتة، تقف فيه السيارات وتنصب فيه المخيمات، وهذا سوف...»

«وهل هذه فكرة حكيمة؟»

فقالت بشيء من الغضب: «آه، لا تقلق فأنت لن ترى ذلك من قريتك.»

قال بهدوء: «ليس هذا ما قصدت. إن طفلة مثلك، وبمفردها، يمكن أن تتعرض لكل أنواع الازعاج.»

«لا أريد أن تدعوني طفلة على الدوام.»

ماذا حصل له؟ ألا يراها ناضجة في الواحدة والعشرين من عمرها الآن؟

عادت تلتفت إلى زاك قائلة بجمود: «إنني لست طفلة، وأنا قادرة تماماً على إدارة أعمالي.»

«هذا مجرد رأي، فإن دخل بعض المخيمات وتوقيف السيارات في الصيف، لا يكفيك للمعيشة وقتاً طويلاً فلماذا لا تفكرين بتعقل و...»

فانفجرت قائلة بحزم: «وكذلك أفكر أيضاً في أن أتقدم بطلب الموافقة الرسمية على غرس الصنوبر على المرتفعات نحو ويذرتور.»

قال بلهجة هي أيضاً لم تعجبها: «أحقاً؟ إنني ما زلت أذكر أنك عندما كنا نخرج نحن الثلاثة على الخيل متنزهين في المراعي الخضراء أذكر أنك كنت تكرهين أشجار الصنوبر والتي كانت تفسد المناظر حسب قولك وكنت دوماً تقولين إنك ستقطعين كل شجرة منها.»

«نعم حسناً...» وسكتت فجأة.

كان يبتسم شبه ابتسامة: «كم كنت فتاة صغيرة عنيفة في تلك الأيام.»

كلا، لا يمكنها أن تتشاجر معه وفي عينيه تلك الرقة

القديمة. وملأت نفسها المرارة والألم فقالت فجأة: «حسناً لقد غيرت رأيي. إن البعض يضطر إلى هذا أحياناً كما تعلم. ولكن هذا ليس كل شيء فتلك الألعاب الحربية...»

«آه، نعم، «لعبة الحرب» تلك... حدثيني عنها.»

«حسناً، لقد رأيتنا هذه الليلة.»

«هذا صحيح. وكم تأخذين أجراً من أولئك الفتيان الذين يمثلون دور الجنود لاستغلالهم غابة لسكومب.»

تملكها الغضب وهي ترى نفسها مضطرة مرة أخرى إلى اتخاذ موقف الدفاع: «هذا يتوقف على ظروفهم. فالمجموعة هذه الليلة دفعت خمسين جنيهاً.»

صدرت عنه ضحكة عدم تصديق وهو يقول: «خمسون جنيهاً؟ أظنك تعنين للشخص الواحد؟»

فقالت باستياء: «إنك تعلم انني لا أعني هذا؟ وكيف يمكن لتلميذ أن يدفع مبلغاً كهذا؟»

فقال بجفاء: «بالضبط وهذا يفسر عدم رغبتي في التعامل مع التلاميذ.»

قالت تسأله بارتياب: «ماذا تعني؟»

«حسناً، كما سبق قولك، هذه اللعبة هي من باب التنويع. وفي ذهني الآن خطة لتنظيم المزرعة هذه ما دمت سأستعيدها الآن.»

حملقت فيه بذعر وهي تقول بصوت مختنق: «أتعني... أنك عدت لكي تقيم هنا؟»

«طبعاً إذ من الواضح أن أبي ما عاد بإمكانه إدارة المكان من الآن فصاعداً وهكذا عاد ابنه المبذر إلى البيت ليديرها له.» وابتسم ساخراً.

«آه...» هذا كل ما استطاعت قوله. ذلك أنه عندما كان زاك ترانشارد غائباً دون فكرة عن عودته كان ذلك أمراً محتملاً... ولكن أن يعيش بجانبها... ولو ثانية واحدة، واوشكت ان تقول نعم، لا بأس سأبيعك المزرعة. أي شيء يجعلها بعيدة عنه ولكنها كبحت نفسها عن أن تقول شيئاً كهذا.

وكان هو يتابع قائلاً: «نعم، لقد كنا نفكر في نفس الشيء أنا وأنت يا تامي، والفرق الوحيد بيننا هو أن مستوى عملك عديم الأهمية بينما أنا أنوي أن أعمل على مستوى أرفع.»

«مستوى أرفع.»

«نعم إنني اهدف إلى التعامل مع رجال الاعمال... والشركات المتنوعة، وتنظيم الأمور بشكل كامل.»

نظرت ذاهلة: «ما الذي تتحدث عنه؟»

مال إلى الأمام قائلاً: «اسمعي إنك سمعت عن (هيئة الضيافة) أليس كذلك؟ حيث تستضيفي الناس مدة نهار في الأقاليم مثل ويمبلدون أو اسكوت مثلاً؟؟» اومأت ببطء، فتابع يقول: «حسناً، فكرتي هي أن نزيد على ذلك بأن نضع برامج عمل يمكن بمقتضاها أن يقوم الزبائن بشيء ما... شيء كانوا دوماً يحلمون بعمله دون أن تسنح لهم فرصة لذلك، بدلاً من أن يمضوا نهارهم في المقاهي بعيدين عن العمل.»

«ما هو نوع تلك الأشياء؟»

«أذكري اسماءها لكي ندونها. سيكون هناك لعبة رمي الأطباق وصيدها وكذلك أي شخص حلم يوماً بقيادة سيارة سباق بسرعة مئة وعشرين ميلاً في الساعة... أو دبابة

حربية قديمة... حسناً، انهم سيجدون تلك الفرصة عندي. إنني سأقدم طلباً باستئجار ذلك المطار الحربي القديم الكائن في الطرف الآخر من القرية وتحويله إلى مجال لكل ذلك.»

قالت بحدة: «وأنت طبعاً ستحصل على إذن بذلك. إن كل الأمور تسير حسب تخطيطك، أليس كذلك؟»

أجاب: «ليس دائماً.» قال ذلك بلهجة مرتبكة وشيء من العبوس.

قالت: «آسفة، ما كان لي أن أقول ذلك. لا بد أن الأمر كان فظيعاً بالنسبة إليك لاضطرارك إلى ترك البحرية.»

«حسناً، دعينا نقل فقط إن ذلك اليوم لم يكن أسعد أيام حياتي. ولكن على كل حال نعم. أظن الطلب سيحظى بالقبول. خصوصاً وأن هذا المشروع سيعود على القرية بمال وفرص عمل هي بأمس الحاجة إليهما.»

«أظن ذلك.» كانت تعلم أنه على حق، ولكن... وقالت له: «في هذه الحالة، لماذا تريد أرضي أيضاً؟»

«إن لديك غابة لسكومب وتلة تور نفسها.»

«تور؟ ولكنها تلة فقط تعلوها صخرة من الصوان. وهي تصلح لرعي الغنم...»

فقاطعها : «أو غرس أشجار الصنوبر فيها.»

ولكنها لن تأكل الطعم، فقالت: «ولكنها لا تفيدك بشيء.»

«آه، ها إننا وصلنا إلى الناحية الأخرى من مشاريع ترنشارد.»

سألته بحذر: «وما هي هذه؟»

«تلك الشركات، فهي ايضاً تساهم في الاحداث وذلك في اختيار الطيارين. وهي التي تجعلهم يهبطون إما على التلة

نفسها وإما في منتصف الليل في أرض مجهولة، وهي غابة لسكومب مثلاً، حيث تلقين بهم ضد فرقة من الكوماندوس ثم يبدأ القتال بينهم.»

هتفت: «آه، ما هذا الكلام الفارغ؟ إن هذا لا يختلف عن لعبتي الحربية.»

فقال ساخراً: «إن هناك المال، وأؤكد لك أنك ستذهلين للمبالغ التي ستدفعها هذه الشركات لكي تمدّ مشاريعها إلى مناطق جديدة.»

تعني أنه مثلك... فكرت تامسن بهذا ولكنها لم تقله، وبدلاً من ذلك قالت ببرودة: «لقد فكرت في كل شيء حقاً أليس كذلك؟»

فهز كتفيه: «أظن ذلك.»

«وأظنك ستخبر كل مجموعاتي بأن لا تزعج نفسها بعد الآن. ذلك أنهم حتماً لن يستطيعوا دفع أسعارك الخيالية.»

فقال ضاحكاً بشكل غير متوقع: «كلا، بل دعيهم يأتون جميعاً فإن للمواطنين امتيازات خاصة عندنا. إن بإمكان الأغنياء أن يعينوهم بالمال. إسمعي يا تامي إن هذا سيدخل نتيجة أفضل كثيراً مما يدخله الصنوبر. اؤكد لك ذلك. فالأشجار تأخذ وقتاً طويلاً لكي تؤتي ثمارها، فإلى أي مدى تستطيعين الانتظار؟»

واتجهت عيناه بنظرة ذات معنى إلى رسالة البنك. كيف أمكنها إن كانت طفلة ساذجة، أن ترفع إليه بصرها بكل ذلك التقدير؟

حتى ولو لم يكن لديه شعور بالذنب من ناحية سارا، ألا يتذكر على الأقل بعض الأشياء عن والدها وكيف كان

يمنحه غالباً صحبة الرجل للرجل والتي كان واضحاً أن الفتى الناشيء كان بأشد الشوق إليها، ولا يتلقاها من والده نفسه؟ ثم أيضاً أمها... ألم تحاول من أعماق قلبها الدافيء الحنون، أن تملأ الفراغ في حياته عندما هجرته أمه ورحلت بعد أن لم تعد تستطيع العيش مع ذلك الرجل المتسلط والذي هو والده، أكثر من ذلك؟

ولكن، لا... لم يكن ثمة فائدة من انتظار أقل لمحة من اللين في هذا الرجل القاسي.

وإذا بها تنفجر قائلة: «قل فقط من تظن نفسك؟ لقد اختفيت منذ خمس سنوات، لتعود بعد ذلك وأنت تظن أن بإمكانك استلام حياة الآخرين بكل بساطة. لماذا لا تعود إلى لندن، يا زاك، حيث هو مكانك الطبيعي؟»

كست ملامحه لمحة باهتة من الغضب، وهو يقول: «لمعلوماتك الخاصة، هذا المكان هنا هو مكاني الطبيعي... أو على الأقل قدر ارتباطك أنت به، هذا عدا أن ليس لدي في لندن ما يدعوني إلى العودة إليها. فقد بعت شركة التأمين التي كنت اقمتها بعد خروجي من القوات البحرية... إذ اشترتها مني إحدى أكبر الشركات الدولية، وأنا استعمل الآن ربحي من ذلك في إقامة هذا المشروع الجديد وهكذا أخشى أن أكون في هذه الأنحاء أغلب الوقت، وهذا شيء عليك أن تعتاديه.»

سرى في كيانها الخوف. فقد كانت تعلم قوة شخصيته وعزيمته الحديدية في شق الطريق التي يريدها مهما كلف ذلك الآخرين. كانت قد ابتدأت تشعر بأنها في زورق صغير يسير بسرعة خطرة بينما فقدت هي مجذافيها.

أضاف يقول: «وأنا مستعد لإعطائك ثمناً عادلاً، بطبيعة الحال.»

«حسناً، هذا شيء جميل منك.»

«وبسعر السوق.»

هتفت تقول: «سعر السوق، ولكنك تعلم جيداً أن اسعار الأراضي قد تدهورت بشكل مخيف في السنوات الأخيرة. فأرضي الآن تساوي أقل بكثير مما أرغم أبي على دفعه ثمناً لها.»

فهز زاك كتفيه: «إنها مشكلتك وليست مشكلتي وهي على كل حال تتغير بطريق غير مباشر. والمنزل لا بد أنه كان أغلى كثيراً مما دفع فيه.»

«المنزل.» وقفزت واقفة فانقلبت كرسيها على الأرض ثم أخذت تقول بصوت صامت: «طبعاً، فأنا سأحتاجه هو أيضاً فهو مازال صامداً منذ العصور الوسطى ويمنحني الامان وكأني عدت الى جذوري.»

أخذت تحدق شاعرة بصراع بين الغضب والارتباك في نفسها كيف يمكنه أن يجلس هكذا بكل برودة مؤشراً على البنود واحداً بعد آخر، متصرفاً بذلك بحياتها بأكملها.

تابع يقول:

«وبجانب ذلك، لا تنسي أننا عشنا في هذا المنزل زمناً طويلاً قبلكم. فنحن كنا هنا مدة ثلاثمئة سنة على الأقل، قبل أن ننتقل إلى المنزل الجديد.»

المنزل الجديد؟ وعادت إلى مخيلتها صورة ذلك المنزل الرائع الجمال والمبني من الحجر الرمادي والذي تحيط به المراعي المعشوشبة المنحدرة نحو الوادي حيث تعاقب

أفراد أسرة ترنشارد على الاقامة فيه أثناء القرنين الماضيين.

«نعم، وبكل كرم أفسحتم المجال للفلاحين لكي يستلموا هذا المكان، كما أظن.»

«فلاحون؟ هل ترين نفسك بهذا الشكل، يا تامي؟»

أجابت بحدة: «كلا، كلا بالطبع. ولكن يبدو أنك أنت الذي تراني بهذا الشكل. فأنا اعترض طريقك مفسدة عليك مشاريعك الخيالية ولهذا يجب ابعادي دون أن يكون لي أي رأي في الأمر.»

«آه، ولكن رأيك هو المطلوب الآن.» كان صوته منخفضاً، ولكنها أحست بالغضب يكمن وراءه. «ولكن لماذا لا تكونين عقلانية؟ فأنت تعلمين أن في هذا المشروع مصلحة كبرى لك بقدر ما هي لي.»

فقالت ساخرة: «ومتى تريدني أن أخرج بالضبط؟»

«آه، لا أريد أن أضغط عليك، يا تامي وأنت تعرفين ذلك.»

استند إلى الخلف في كرسيه، ورأت تألق الرضا في عينيه. إنه حقاً يظن نفسه الرابح.

ضربت المائدة بيديها الاثنتين ما جعل فناجين القهوة تهتز ثم نهضت قائلة: «حسناً، أنا آسفة. إن مزرعة ويذرتور ليست للبيع... حتى ولا سنتمتر واحد منها. لو كان أبي على قيد الحياة لما رضي بذلك، وكذلك أنا. إنني آخر أفراد أسرة وستماكوت و...»

«لا تكوني سخيفة.» هب ناهضاً هو أيضاً، وقال: «إنك تقولين هذا وكأنك آخر فرد من أسرة حاكمة وقد اعجزتك الشيخوخة. إنك شابة وستتزوجين يوماً ما...»

فقاطعته: «أبداً، لن أتزوج على الإطلاق.»

«بل ستتزوجين طبعاً.»

أخذت تكرر بحدة: «كلا، لن أتزوج.»

«لا تكوني صبيانية بهذا الشكل، يا تامي، من المؤكد أنك لن تتمكني من مغالبة الصعاب هنا. إن بإمكانك أن تشتري بالمال الذي سأعطيه لك، منزلاً حديثاً في القرية... أو تنتقلي إلى المدينة.»

تنتقل إلى المدينة؟ كيف بإمكانه أن يقول ذلك؟ أيعتقد حقاً أنها من الممكن أن تترك برغبتها أرضها الحبيبة؟

كان هو يتابع قائلاً: «وبإمكانك أن تنفقي بعض النقود على نفسك...»

«كلا، ألا يمكن لذهنك المتغطرس هذا أن يفهم إنني غير مستعدة للبيع، حتى ولو اضطررت لذلك فلن تحصل أنت عليها، يا زاك ترنشارد ولو كنت آخر رجل في انكلترا.»

«هكذا إذن. هل لي أن اسأل عن السبب؟»

هل عليها حقاً أن تقول له أنه دمر حياة سارا؟ وأنه وعدها بالزواج مراراً رغم عدم وجود خطبة رسمية بينهما، ما جعل عالم سارا يدور حوله. انه رغم كل ذلك قد رحل من دون كلمة بعد ذلك الشجار العنيف بينه وبين والده.

وقالت بثبات: «فلنقل فقط إنني لا أحب أسرة ترنشارد.»

«إذن، فقد انحدر الأمر إلى حقد شخصي، أليس كذلك؟»

«يمكنك أن تفسر الأمر بهذا الشكل.»

«هل لأنك اقنعت نفسك بأن والدي قد خذلَ والدك، تجعلين نفسك بهذه التفاهة والحقد؟»

نظرت إليه غير مصدقة. كان واضحاً أنه لم يخطر بباله

على الإطلاق أن عنادها قد يكون له علاقة بمعاملته لسارا. لقد نجح حقاً في محو هذا الأمر من ذهنه كلياً، ولا شك أن الغرور سيتملكه إذا علم أن سارا لم تفعل مثله. حسناً، إنها لن تخبره بذلك إذن.

فقالت بلهجة عصبية: «ما دمت تقول ذلك، يمكنك ان تفترضه صحيحاً.»

«حسناً، فأنا أنذرك بأنني لا أقبل كلمة (كلا) بسهولة... وأنا دوماً أصل إلى ما أريده سواء عاجلاً أم آجلاً.»

ردت بحدة: «أحقاً؟ في هذه الحالة ستجرب الفشل ولو مرة واحدة أليس كذلك؟»

شحن الجو بينهما بالغضب ولأول مرة في حياتها تشعر حقاً بالخوف. كانت طبعاً كثيراً ما تخاف منه عندما كانت طفلة وكانت تتعمد استفزاز الغلام زاك ولكن الأمر هذه المرة كان مختلفاً. كانت تشعر بخوف حقيقي من هذا الرجل الذي يقف أمامها.

لكنه كان استدار ليذهب، ثم التفت إليها وقال: «أنا كنت مخطئاً بالنسبة إلى شيء واحد، يا تامسن، فأنت قد تغيرت. لقد كنت دوماً فتاة رضية الطباع، ولكنك الآن قاسية كالمسامير.»

«تصبح على خير، يا زاك.»

ثم وقفت تستمع إلى وقع خطواته على الفناء المبلط، ثم وببطء أخذت ترتجف فرفعت الكرسي الذي كان سقط على الأرض، ثم انهارت عليه وهي تقول غائبة الذهن.

«آه، يا لها من ورطة.»

الفصل الثالث

مسحت تامسن جبينها الحار بقفا يدها، ثم وقفت تريح ظهرها المتعب وهي تتنهد بارتياح، حسناً، لقد غرزت اكثر بذور البطاطا على الأقل، ولم يعد عليها الآن إلا أن تغرس نباتات الخضار الصيفية.

أخرجت سكينها لتفتح الكيس الأخير، ثم توقفت، ان عليها أن تنهي غرس كل شيء، وكانت تعلم ذلك، إذ بالنسبة إلى قلة النقود لديها، كانت تشعر بالسرور لكل ما يمكنها زرعه، ولكن اليوم... لقد حل الربيع. والغيمات الصغيرة تتتابع فوق سماء زرقاء، وفوق رأسها مباشرة كانت قبرة تغرد بصوت مرتعش، بعد حوالي الثلاثة أسابيع من الايام المتعبة، حان لها حقاً ان ترتاح، ولكن عصر هذا النهار كان أروع من ان تضيعه داخل الجدران... أو زراعة البطاطا.

وعندما سارت في الممر العشبي والمؤدي إلى منطقة الفاكهة، وقعت نظراتها على ضفدع ضخم يزحف من تحت أوراق متحللة لشجرة، ثم أخذ يطرف بعينيه الناعستين في الشمس، وقفت تراقبه وهي تكاد تشعر بابتهاجه العنيف لبقائه حياً بعد هذا الشتاء الطويل.

«إنني اعرف شعورك تماماً، يا صغيري.» همست بذلك وهي تدغدغ أنفه مداعبة قبل ان تتركه يستمتع بنور الشمس.

وفي المطبخ غسلت يديها ثم غيرت ملابسها الملوثة بالوحل بأخرى انظف قليلاً، وحيث انها لم تكن تتوقع أي

زائر يقطع كل تلك الطريق من القرية إلى مزرعتها، فهي لم تجد ضرورة لحبس الكلب جوس، وهكذا تركته في الفناء ينظر اليها بحزن وهي تخرج من البوابة إلى ان غابت عن الأبصار.

سارت مجتازة مخزن الغلال وحظيرة توليد النعاج، حيث كانت أمضت مع ماتيو ساعات كثيرة أثناء الأسابيع الأخيرة وحيث انها ستكون موجودة فيها الليلة بلا شك. نعجات قليلة فقط لم تلد بعد، ولكن لا بد ان بعضها تنوي ذلك الليلة.

صعدت فوق السياج، ثم سارت بمحاذاة الجدول صاعدة خلال المراعي حيث كان العشب قد نما لامعاً داكن الخضرة، قطعت شيئاً منه ثم اخذت تمضغه مستمتعة بحلاوته وعصيره، إذا دام هذا الجو، فستسرع بإحضار الأغنام إلى هنا لترعى.

رفعت عينيها عن الجدول الذي كان يتدفق فوق الأحجار، إلى المراعي خلفه والتي ما زالت جرداء سمراء اللون بسبب قسوة رياح الشتاء، كان ريفاً وحشياً قاسياً احياناً، ولكنها كانت تحبه في كل حالاته وذلك بمشاعر عنيفة ومن أعماق كيانها.

سارت تحت اغصان شجرة زعرور مثقلة بثمارها، لتجد نفسها امام جذع شجرة ساقط جلست عليه بكل راحة، وهي تنظر حولها، كانت الأشجار قد ابتدأت تزهر، وبدت ان الاشياء قد تغيرت حقاً منذ آخر مرة جاءت فيها إلى هنا، وذلك في تلك الليلة المقمرة التي تلاقت فيها فجأة مع زاك.

زاك، لقد حاولت جاهدة أثناء الأسابيع الثلاثة الأخيرة، ان لا تفكر فيه، وكانت النتيجة انها وجدت نفسها تفكر فيه معظم الوقت، ولكن طريقيهما على الأقل لم يلتقيا... ليس

مباشرة على كل حال، رغم انها كانت رأته عدة مرات، رأته مرة من بعيد على ظهر جواد يطوف في المراعي، ومرة في القرية خارجاً من مكان عام بصحبة مجموعة من الرجال الخشني المظهر والذين ربما كانوا من الكوماندوس السابقين الذين كان حدثها عنهم. ثم في الأسبوع الأخير، كانت تختصر الطريق في ممر ضيق عندما وجدت نفسها فجأة امام سيارة رانج روفر جديدة متألقة.

وعندما لم يظهر سائقها، والذي كان غير مرئي خلف زجاج السيارة الأمامي نظراً لالتماعه في أشعة الشمس، لم يظهر أي دليل على رغبته في التراجع، نظراً لضيق الطريق، إضطرت تامسن إلى السير إلى الخلف بسيارتها اللاند روفر المتهالكة، في ذلك الطريق المتعرج، بينما تبعتها السيارة الأخرى تكاد تلتصق بها ومحركها يدور بفروغ صبر، إلى ان وصلت أخيراً إلى البوابة فدخلتها. فقط عندما مرت بها الرانج روفر بسرعة استطاعت رؤية السائق عندما رفع زاك يده بتحية كسول وقحة.

حتى الآن على الأقل، لم يعد زاك إلى أي تهديد أو حركة باتجاهها... ولكنه كان قال انه لن يقبل كلمة (كلا)، جواباً منها... وان لم تكن بحاجة إلى ان يخبرها بذلك، وتذكرت زاك القديم بشكل واضح أزال من نفسها كل شك في أنه سيعود سواء عاجلاً أم آجلاً.

حسناً، مهما كان نوع الضغط الذي سيزاوله عليها، فهو لن يضع يده على هذا المكان، ولكن ما الذي يدور في خلده، يا ترى؟ كانت جملته تلك لا تنفك تعاودها (انني دوماً احصل على ما أريده سواء عاجلاً أم آجلاً.) حسناً، آسفة إذ أخيب

املك، يا زاك ترنشارد، ولكنك لن تحصل على ما تريد هذه المرة، فأنا لن اسمح لك بذلك.

قطع عليها حبل افكارها اصوات مفاجئة، كانت اصوات رجال وضحك، وجمدت تامسن تستمع، كانت الأصوات قريبة جداً، ومن المؤكد انهم كانوا في الغابة.

لم يلحظها الرجال في البداية، وهي تقترب، كانوا يقفون بشكل مجموعة وكانوا ستة مستغرقين في حديث، فوقفت عدة لحظات تنظر إليهم، كانوا غرباء في ملابس موحدة هي عبارة عن سترة مشمعة وحذاء اخضر يصل إلى الركبة، من تراهم يكونون؟ ترددت لحظة ولكنها عندما سمعت اسم ترنشارد فهمت كل شيء.

إذن، فهذا ما يسعى إليه! كان يتنقل في أرضها محضراً زبائنه من المدينة معه، حتى من دون أن يزعج نفسه باستئذانها، وتملكها الغضب، ولكنها كانت تعلم انها إذا أرادت ان تعالج الموقف، فعليها ان تكون حازمة، فتقدمت إلى الأمام.

«أتحتاجون إلى خدمة؟»

التفت اليها الرجال بسرعة.

«لا اظن ذلك.» وإزاء لهجة الرجل الباردة الفاصلة، شعرت بيديها تتقبضان بعنف، فدستهما في جيبيها وعادت تقول: «أتدركون انكم في أرض خاصة؟» وكان صوتها قد ارتفع عما كانت تنويه وذلك إزاء نظراتهم غير الودية.

«نعم، في الواقع نحن نعلم ذلك. ولكن ما علاقة ذلك بك؟» احمر وجهها للوقاحة البادية في لهجته.

«ذلك لأنني صاحبة الأرض هذه، هذه هي

علاقتي بها.» وكانت الحدة بادية في لهجتها.

«آه، أحقاً؟» واطلق ضحكة كريهة.

«نعم، وأنت تتعدى على ارضي...»

فقاطعها رجل آخر من المجموعة: «آه، هيا الآن... حيث انك فتاة قروية المولد والنشأة...» قال ذلك بلهجة بدت فيها الغطرسة: «فلا بد انك تعلمين ان التعدي ليس جرماً في القانون...»

«إلا إذا تسببت بخراب ما.» وتجاوزتهم بنظراتها إلى البوابة الموجودة في الجدار الحجري المنخفض الذي يعين حدودها في هذه الزاوية من الغابة فرأتها مائلة في طرفها فسألتهم: «هل دخلتم من خلال هذه البوابة، أو من فوقها؟»

فرد الرجل الآخر بعداء: «وماذا لو فعلنا ذلك؟»

«ان أية فتاة قروية يمكنها ان تخبركم بأن لا تتسلقوا بوابة من ناحية المزلاج، فقد كسرتم المفصل.»

«إذن ما كان لك ان تقفليها.»

«إنني اقفلها دوماً، في الواقع، لكي امنع الناس غير المرغوبين، مثلكم من دخولها.» وكانت الآن قد سمحت لنفسها بإظهار غضبها.

«اسمعي، أيتها...»

«هل ثمة مشكلة، يا سادة؟»

كان هذا صوت زاك يقاطعهم، فاستداروا جميعاً ليروه واقفاً على طرف الجدار البعيد وعندما اخذوا يحدقون إليه بصمت، وثب إلى الأرض ثم تقدم نحوهم.

أخذت تامسن، والتي كانت متوارية عنه نوعاً ما خلف

الرجال، اخذت تنظر اليه وهو يقترب وقد تملكها التوجس بالرغم منها، أخمدت غضبها على الفور، وإذ كانت تعرفه جيداً، فقد أدركت ما غفل عنه هؤلاء الرجال، وهو ان خلف صوته الهادىء هذا كان يكمن غضب عنيف بدا في احمرار وجنتيه.

ألقى عليها نظرة تحذير واحدة ما لبث بعدها ان أهملها كلياً وهو يستدير إلى الرجال مكرراً: «هل ثمة مشكلة؟»

ولكنها لن تسمح له بأن يرهبها، فهي لم تعد طفلة الآن، فاندفعت تقول: «ليس هم من لديهم المشكلة، بل انا، انهم في املاكي.»

فقال من دون ان يلتفت إليها: «أنا آسف، يا سادة، ولكن في الواقع ان الفتاة الشابة محقة...» وتوقف جزءاً من الثانية: «في الوقت الحاضر على الأقل.»

جذبت تامسن أنفاسها بغضب، هل هذا التهديد الواضح هي فكرته عن الاعتذار؟

قالت بحدة: «اظنك اعتبرت إرسالهم إلى أرضي فكرة بارعة.»

في ثلاث خطوات وصل إليها حيث قال محذراً: «لا بأس، يا تامسين، فقد قلت ما تريدين، والآن أقفلي فمك.»

فعادت سيطرتها على نفسها إلى التراخي وهي ترى ابتساماتهم المتهكمة، كان من الواضح انهم كانوا ينتظرون بصفتها انثى، ان تلزم حدودها.

فقالت له بحدة: «كلا، لن اقفل فمي.»

وتابعت تقول له بعنف: «وربما قلت لهم ان يكسروا بوابتي أيضاً.»

كانت النظرة التي رمقها بها مليئة بالحقد، ولكن كل ما قاله هو: «إذا كان ثمة خراب ما، فيسرني طبعاً ان اصلحه.»

«شكراً، لا ضرورة لأن تزعج نفسك، سأصلحه بنفسي.»

أدركت الآن انها كانت تتصرف بصبيانية، رأت وكأنها عادت بالزمن إلى الوراء حيث الأيام التي كانت ترفع فيها قبضتها تستفزه، كانت دوماً تثير المشاكل... وهذا ما كانت والدتها تنبهها إليه، وكذلك كانت دوماً تقع في تلك المشاكل.

نظرت اليه بحزم، لكن زاك والذي كان أكثر مهارة في إخفاء مشاعره منها، لم يخرج عن أن التفت إلى الرجال وهو يقول بدماثة: «اذا جئتم من هذا الطريق، أيها السادة، فسنتابع جولتنا.»

وعندما عادوا نحو الجدار، أدلى أحد الرجال بملاحظة لم تسمعها تامسن تماماً، ولكنهم ضحكوا جميعاً ما عدا زاك الذي تقدم إلى الأمام بخطوات واسعة ووجه متحجر، دون أن يلقي إلى ناحيتها نظرة أخرى.

* * *

سمعه الكلب جوس قادماً، فشهر أذنيه ورفع رأسه من حيث كان مستلقياً بجانب مدفأة الحطب، ثم اطلق زمجرة خافتة، فجمدت يدا تامسن اللتان كانتا تدعكان العجين توطئة لخبزه، ولكنها عندما وقعت نظراتها على ذلك الشخص المألوف والذي كان ينزل من سيارته الرانج روفر ثم يجتاز الفناء... وكأنه

أصبح مالكاً له، كما فكرت بامتعاض، عادت إلى العجن بسرعة.

عندما كانت عادت إلى بيتها، منذ حوالي ساعة، ابتدأت بصنع الخبز لكي تهدىء من عصبيتها، وقد نجح هذا العلاج... حتى الآن، وسمعت صوت وقع خطوات زاك على الأرض الحجرية امام الباب فارتبكت، بالرغم منها، وهي ترى باب المطبخ ينفتح، ومن طرف عينيها رأت الكلب يقفز واقفاً، تمنت في داخلها لو يعضه ويمزقه أرباً! ولكن الكلب لم يفعل شيئاً. حسناً، انها هي التي كانت طمأنت جوس إلى ان هذا الرجل هو صديق، وبالتالي لم يعد بإمكانها ان تتراجع.

لكنها رفضت أن ترفع نظرها، وإنما اكتفت بأن قالت من دون ان تحول نظراتها عن العجين: «أدخل.»

ومن تحت أهدابها، رأت زاك يتقدم ليقف امامها يواجهها: «ما الذي كنت تريدين فعله هناك؟»

سمعته يتنفس بعنف، كان واضحاً انه ما زال غاضباً، ولكي تمنح نفسها فرصة تتمالك فيها أعصابها، سألته: «من أية ناحية؟»

«انك تعلمين تماماً من أية ناحية.»

ولأول مرة، رفعت عينيها تقابل عينيه الثائرتين: «حسناً، كنت أودع اصدقاءك الظرفاء اولئك، عند مغادرتهم أرضي، إذا كان هذا ما تعنيه.»

فقال ببرود: «انهم ليسوا اصدقاء لي، انهم زبائن... أو على الأقل كانوا كذلك.»

«آه، إذن فهؤلاء هم نوع الناس الذين اخترت التعامل

معهم.» كانت تعلم ان تعمدها وخزه بهذا الشكل كان أمراً خطراً، ولكن كان عليها أن تواجهه بجرأة.

فقال لها: «لا يمكنني ان اختار من اتعامل معهم... اكثر مما بإمكانك انت.»

«اظنك فكرت بأنك إذا استطعت أن تأتي بهم مرة إلى أملاكي...»

«لمعلوماتك الخاصة، أنا لم اتعمد اخذهم إلى ارضك، فقد استدعيت إلى البيت لأجيب على مخابرة هاتفية مستعجلة، فأخذوا هم يجولون في الأنحاء وحدهم.»

«ومن يكونون، على كل حال؟»

«انهم يمثلون بعض الشركات التي كنت اتعامل معها، وكنت أقوم معهم بجولة اريهم فيها نوع التسهيلات التي بإمكاننا تقديمها لهم.»

«أتعني بما في ذلك غابة لسكومب؟»

«هل تعلمين انك كنت على وشك ان تجعليني أخسر التعامل مع ست شركات وذلك بسبب سلوكك الصبياني؟»

ألقت بالعجين على المائدة بعنف وهي تقول: «هذا حسن.»

«انهم الآن ذاهبون إلى منطقة هرفورشاير للبحث عن نشاطات أخرى، ولا اظنهم عائدين إلى هنا، ولا شك ان سكان تلك المنطقة هم أحسن ضيافة مما وجدوه هنا.»

فقالت بجرأة: «آه، أحقاً؟» ولكنها بشكل مفاجيء، شعرت بسأم بالغ يتملكها، ما جعلها لا تحتمل دوام هذا الجدل العديم الفائدة، فقالت: «اسمع، يا زاك، إذا كان هذا كل ما

جئت لتقوله، فإنني مشغولة، وإذا كنت لم تلاحظ، فأنا منهمكة الآن في إعداد الخبز.»

«هذا شيء آخر، فكل هذا كثير عليك القيام به، لماذا لا تعترفين بذلك؟ حتى ان عليك ان تصنعي خبزك في حين يوجد فرن جيد في القرية.»

«لأنني أحب هذا العمل.»

«ربما هذا صحيح، وربما تحاولين فقط ان تشغلي نفسك.»

«أنا حالياً، أحاول ان أعد هذا الخبز.»

فقال متجاهلاً كلامها: «يبدو وكأنك فقدت السيطرة على تصرفاتك، هل تدركين ذلك؟ انك في الواقع، تبدين فظيعة تماماً.»

«حسناً، اشكرك، وأنا اتقبل كل هذا الإطراء بسرور.»

ألقت عليه نظرة عدائية، ولكنه هز رأسه: «ما كنت لأضيع وقتي في تقديم إطراء لك لا أعنيه، يا تامي، فنحن نعرف بعضنا بشكل يجعلنا لا نهتم بهذه الأمور.»

فجأة تملكها شعور بالغ بالحزن، كانت تظن طوال السنوات الماضية، انها تعرفه إلى أن ظهرت حقيقته.

سألها: «هل ما زلت متعلقة بأرضك؟»

«طبعاً.»

«اسمعي يا تامي، ان اخذي لتلك المجموعة هذا النهار في جولة، يبدي بجلاء مبلغ ما في تعلقك بغابة لسكومب من غباء، فهذا شيء غير منطقي.»

قالت بحدة: «وما دخل المنطق في هذا؟»

«لا شيء في الواقع، بالنسبة إليك، ولكن ألا يمكنك ان

تري كيف ان الغابة تفصل المنطقة التي سأستعملها إلى جزئين؟»

«حسناً، من المؤسف ان والدك لم يفكر في ذلك عندما أرغم والدي على شرائها.»

«إذن فانت مصممة على جعل الحياة صعبة بالنسبة إليّ، وذلك بدافع الولاء لوالدك، لا اظنه سيشكرك لهذا... انني واثق من ذلك، كما انه لا يريدك ان تقتلي نفسك بالعمل، في سبيل تنفيذ ذلك.»

«كلام فارغ، حسناً، ربما كنت انهك نفسي في العمل، حالياً... ولكن مع نهاية الأسبوع ستكون مسألة الخراف قد انتهت...»

«واظنك تقومين بكل ذلك بمفردك.»

«كلا، بالطبع، فأنا اتناوب العمل بشكل جزئي مع ماتيو كل يوم، على الأقل حتى...»

وسكتت فجأة، انها حتماً، لن تعترف بأنها هذا اليوم ولأول مرة ستكون بمفردها.

فقال يحثها على المتابعة: «حتى ماذا؟»

« حتى تلد النعاج طبعاً.»

كان ينظر اليها بمزيج من الغضب والحنق وربما كان هناك لمحة اعجاب رغماً عنه.

«يا لك من فتاة قوية، يا تامي، انني اعترف بذلك، ان سارا بالمقارنة بك...»

فقالت بحدة: «ماذا عن سارا؟»

«حسناً، لقد كانت بالغة الرقة والضعف.»

قالت من دون تفكير: «كان عليك ان تعرف ذلك.»

«ما الذي تعنينه بهذا بالضبط؟»

قال لها ذلك عابساً ما جعلها تمسك عن كل ما كانت تنوي أن تقوله، وهكذا هزت فقط كتفيها وهي تقول: «حسناً، لقد كنت تعرفها، أليس كذلك؟»

ابتدأت تضع الأواني في الحوض لغسلها، ثم قالت وهي ما زالت توليه ظهرها: «ليس ثمة ما أقوله أكثر من ذلك، فأنا لست مستعدة لبيع المزرعة لك... وهذا نهائي والأفضل لك ان تقبله.»

فتحت صنبور الماء، ولكن صوت تدفق المياه لم يمنعها من أن تسمعه يتمتم بكلمات تعبر عن غضبه، ثم بعد ذلك صوت الباب وهو يصفقه خلفه بعنف.

* * *

إرتجفت تامسن وتيار هوائي بارد يدور حولها. فنزلت من على كيس القش الذي كانت تجلس عليه، ثم سارت نحو باب المخزن.

وضعت يدها على المزلاج كي تحكم اغلاقه، ولكنها بدلاً من ذلك، فتحته على مصراعيه، كان النهار الربيعي الرائع الجمال قد استحال إلى ليلة باردة، وفوق رأسها كانت مليون نجمة تلتمع، بينما الفناء المبلط يبدو أبيض إلى ازرق في ضوء البدر، ومن مكان بعيد خلف تلة تور تصاعد عواء أنثى الثعلب، كان صوتاً ثاقباً حزيناً موحشاً أخافها، وإذا بها تسمع صوت كلبها جوس ينبح مجيباً من الإصطبل.

عادت فأغلقت باب المخزن، ثم لفت نفسها ببطانية

صوفية ثم اندست بين اكياس القش واضعة رأسها بين ذراعيها.

وإلى الناحية الأخرى من المخزن، وقفت النعاج الأربع التي كانت احضرتها، بمساعدة الكلب، جوس من الحظيرة عند غياب الشمس، وقفت ملتفة حول بعضها البعض طلباً للدفء كانت النعاج تنظر إليها وقد عكست اعينها الضوء الأصفر الذي كان الفانوسان يلقيانه على المكان، وسوى ذلك لم يحدث شيء، حتى ولا دليل واحد على أن واحدة منها على وشك المخاض.

اخذت تامسن تحدق في النعاج الأربع متأملة، ربما كانت هي مخطئة في توقع ولادتها، وبالتالي من الأفضل لها ان تدعها وشانها وتذهب إلى البيت.

أيمكنها المجازفة بالذهاب؟ كلا، بكل تأكيد، ويبدو ان تامسن لم تنتبه إلى ما كانت الراعية العجوز تحدثها به في الناحية الأخرى من المزرعة مؤكدة لها ان النعاج تحب ان تنجب وأشعة الشمس على وجوهها، بينما كل واحدة منها، حتى الآن، حريصة على أن تنجب اثناء ساعات الظلام.

عندما ابتدأت النعاج تلد منذ حوالي الثلاثة اسابيع، تقريباً، اخذت تمكث في المخزن كل ليلة إلى حوالي منتصف الليل، ثم تترك النعاج ترعى نفسها بنفسها، ولكن منذ ذلك الفجر الرهيب حين جاءت لتكتشف جثتين صغيرتين تثيران الشفقة بينما الأم في حاجة ماسة إلى طبيب بيطري، بعد ذلك اخذا، هي وماتيو، يتناوبان السهر كل ليلة.. إلى هذه الليلة.

وتناهى إلى سمعها نباح من آخر الفناء... قد يكون

جوس ما زال يرد على انثى الثعلب التي كانت تطوف خلسة في الأنحاء... ولكن إذا بخطى قادمة مجتازة الفناء، وعندما رفعت رأسها مقطبة جبينها وقد تملكتها الحيرة وشيء من الخوف، إذا بباب المخزن يفتح فيتصاعد من المفصلات صرير عال ظهر بعده خيال رجل يبدو أسود في ضوء القمر، يقف عند العتبة.

الفصل الرابع

بينما أخذت تامسن تنظر إلى زاك مذهولة، وقالت تسأله: «ما الذي تريده الآن؟» وكان صوتها وهي تقول ذلك، أشبه بالتأوه. كانت من شدة الإرهاق بحيث كانت الأشياء تبدو في نظرها مزدوجة ما جعلها ترى زاك ترنشارد اثنين، وكأن واحداً لم يكن يكفي...

«إذاكنت جئت مرة أخرى لكي تخيفني لأبيعك المزرعة، فبإمكانك...»

«كلا بالطبع، أيتها الغبية، فإن بيتي أحب إليّ من قضاء الليل في هذا المخزن البارد لكي أجادل فتاة عنيدة سليطة الكلام مثلك، يا تامسن وستماكوت.»

«قضاء الليل؟ ماذا تعني؟»

«أعني ما قلته.»

ولأول مرة تلحظ البساط المطوي والصندوق المصنوع من الخيزران المجدول اللذين كان يحملهما، بعد أن ألقى بهما على الأرض بجانب كيس القش الذي كانت تجلس عليه، وعندما استقام في وقفته ورأى الفزع يكسو ملامحها، اخذ يضحك بهدوء، وقد اخذت عيناه واسنانه تلتمعان في ضوء الفانوس، وخيل إلى تامسن أن في ابتسامته ما يشبه تكشيرة الذئب.

«جئت لاساعدك.»

«ولكنني لست بحاجة إلى أي مساعدة، شكراً لك على كل

حال، وهكذا لا حاجة بك للبقاء.» وقالت الجملة الأخيرة بكل أدب.

«انا آسف، ولكنني سأبقى، قد تكونين من الغباء بحيث تظنين ان باستطاعتك التصرف بمفردك، حتى انك قد تكونين أقنعت ماتيو بأن بإمكانك...»

فسألته: «وكيف عرفت ذلك؟»

«حسناً، انك لم تخبريني بذلك عصر هذا اليوم، ولكنني كنت داخلاً بسيارتي إلى القرية، وإذا بي أرى ماتيو يصعد إلى سيارة صهره زوج ابنته، وهو يحمل بيده حقيبة ملابس صغيرة...»

فقاطعته: «وطبعاً، لم تستطع ان تمنع نفسك من التدخل، فتتابع طريقك...»

«... ثم اخبرني بأنك اصريت عليه بأن يذهب إلى بلدة بنزانس ليرى حفيده المولود حديثاً، قائلة بأنك ستكونين على ما يرام .. وذلك في الوقت الذي يعلم فيه أي أحمق بأن ولادة النعجة تحتاج إلى عمل شخصين.»

أجابت: «حسناً، ذلك فقط لليلة واحدة، فهو رجل مسن وعليه ان يرى حفيده...» قالت ذلك متجهمة وهي ترى كيف استطاع مرة أخرى ان يجعلها في موضع الدفاع.

«هذا ما كنت قلته لك من قبل.»

«... ثم انه قد طال انتظاره لأول حفيد له، ولهذا قلت له...»

«وهكذا طمأنته إلى انك باستطاعتك أن تتدبري أمرك بمفردك. حسناً، بإمكاني ان اخبرك بأنه ذهب وهو أسعد حالاً بكثير بعد ما علم بأنني سأبقى معك واساعدك.»

قالت بما يقرب التوسل: «كلا، يا زاك، فأنا سأكون بخير، انا واثقة من ذلك.»

فقال: «آه، اسكتي، من فضلك.» ولكن كان في لهجته شيء من المودة: «فمعلوماتي عن توليد النعاج لا تقل عن معلوماتك، على الأقل، فقد طالما ساعدت والدك في ذلك، أم انك نسيت؟»

كلا، انها لم تنس، كان زاك في السادسة عشرة... في مخزن الغلال نفسه هذا...

«تعالي، يا تامي وامسكي بهذا، كلا؟ تعالي... ايتها المعتوهة.» وها هو ذا زاك الآن وقد امتلأت عيناه حالياً، بحماسة الصبا كما كان دوماً، قبل ان تحل مكانها الشدة والسخرية...

أومأت بالإيجاب على كره منها، ثم اخذت تنظر إليه يجر كيسي تبن، وهو يتابع قائلاً: «وبعد تلك الفترة ذهبت إلى نيوزيلاند حيث عملت في حظيرة للأغنام، هل تذكرين؟»

نعم... طبعاً، وأخذت تفكر في ذلك الغلام العنيد والذي بعد ان نجح في كل امتحاناته دون مجهود يذكر، خرج من المدرسة، وبكل بساطة تاركاً موطنه رغم غضب والده وثورته.

«لقد ذهبت أولاً إلى اميركا، أليس كذلك؟» سألته هذا رغم انها تذكر جيداً كيف اخذتا، هي وسارا، تستمعان إلى قصصه عن مغامراته حيث كان عاملاً متنقلاً، حيثما كان هناك موسم حصاد حتى حدود كندا.

أجاب: «هذا صحيح، ثم عدت إلى الوطن مرة أخرى لكي أحاول القيام بواجبي البنوي نحو والدي.»

فقالت بصوت أقرب إلى الهمس: «ولكنك لم تستطع البقاء.»

أجاب عابساً: «كلا، ويبدو أنني لم استطع ان اتخلص من حب التجوال، كنت ما أزال أتوق إلى الحركة، التشويق، الأخطار، ولهذا التحقت بالجيش... وبهذا حصلت على هذه الأمور الثلاثة التي كنت أريدها.»

جلس على اكياس التبن بينما كان يتابع قائلاً: «وعلى كل حال، فقد اصبح كل هذا شيئاً من الماضي الآن.»

وكذلك سارا كما اظن... كادت هذه الكلمات تصدر عنها، ولكنها كبحتها في الوقت المناسب، فليس هذا بالوقت ولا المكان المناسبين لصدام آخر معه.

«كيف مرت ولادات النعاج، حتى الآن.»

أجابت: « جيدة تماماً، لقد فقدت حملين، وكان التوائم كثيرين، طبعاً، وهذه النعاج الأربع الآن هي الأخيرة تقريباً، وقد احضرتها إلى هنا لأنني ظننتها على وشك الوضع ولكنني...»

«اتعنين كتلك النعجة هناك.» وأشار برأسه إلى واحدة من النعجات رأتها تامسن تدور حول نفسها بضيق وقلق، وإزاء هذا الدليل الواضح، قفزت واقفة وركضت نحوها.

أثناء ذلك، كانت النعجة قد ولدت حملها بسرعة ودون أي عون خارجي، فحمل زاك المولود الصغير بين يديه برفق بينما أخذت هي تمسح فمه الضئيل، ثم اخذا ينظران إليه وهو يقفز واقفاً على قدميه، ثم يتجه إلى أمه وهو يترنح في مشيته.

وقف زاك وهو يقول: «حسناً، هناك واحدة دائمة

الحركة، اتعلمين، اشعر بأن هذه الليلة ستكون صعبة للغاية، فدعينا نأكل شيئاً.»

وإذ أخذت تامسن تنظر إليه، اخذ يغسل يديه في سطل ماء كان بالقرب منهما، ثم فتح السلة وأخرج منها مرطباناً واسع الفوهة سكب منه حساء في فنجانين ناولها احدهما.

«هاك، تناولي هذا، إنه حساء الهليون، وانا ما زلت أذكر انه كان المفضل لديك.»

«أنا... حسناً، اشكرك.»

قالت ذلك بشيء من الإستغراب، ثم اخذت الفنجان الذي تتصاعد منه الرائحة الذكية.

عاد يمد يده إلى السلة وهو يسألها: «أتحبين فطيرة باللحم؟»

«آه، كلا، هذا يكفي.»

قالت ذلك بسرعة وهي تراه يزيل الغطاء عن وعاء يحتوي على فطائر ذهبية اللون، كانت تبدو شهية للغاية، ولكنها شعرت فجأة بأن عليها ان لا تسمح لنفسها بأن تصبح مدينة له اكثر مما سمحت به هذه الليلة، وتابعت تقول: «ان لدي هنا بعض شطائر الجبن، أتريد واحدة منها؟ ثمة صلصة حارة مع الجبن.»

فقال بابتسامة مفاجئة: «شطائر بالجبن والصلصة الحارة؟ نعم، من فضلك، انها شيء لا يمكنني مقاومته.»

ناولته واحدة أخذ منها لقمة: «همم... انها طيبة الطعم، هل هي ما كنت تخبزينه عصر هذا اليوم؟»

« كلا، لقد صنعت هذه منذ يومين.» لم تكن ثمة ضرورة تجعلها تخبره بأن ما كانت تخبزه عصر هذا النهار، كان قد

تلف بأجمعه ما جعلها تلقي به في القمامة وهي تحدث نفسها بغضب بأن سبب هذا هو نسيانها في الفرن وعجزها عن التركيز أثناء زيارته لها والكلمات الغاضبة التي تبادلاها.

استندت إلى الخلف وهي ترشف الحساء الساخن فتشعر به يدفئها وهو في طريقه ليستقر في معدتها، نظرت إليه خلسة من فوق حافة فنجانها وهو يقضم لقمة أخرى من الشطيرة. انها لا تستطيع ان تفهمه... لا تستطيع ان تعلم ما في داخله على الاطلاق، انهما هما الاثنين، منخرطان في صراع الموت والحياة لأجل مزرعة ويذرتور ومع هذا فها هوذا مستعد لقضاء وقت طويل مرهق في مخزن غلال بالغ البرودة يساعد عدوته في توليد اغنامها.

قطبت جبينها وهي تنظر إلى مقدمة حذائها. كل هذا كان يحيرها تماماً، خصوصاً الحنان والاهتمام بمصلحة الآخرين وخيرهم، كل هذا يبدو بعيداً تماماً عن طباعه.

سألته: «ولكن، ما الذي يجعلك تساعدني بهذا الشكل؟»

هز كتفيه قائلاً: «لا تسأليني، ولنعتبر ذلك لأجل الماضي، وبعد، فقد كنا صديقين على الدوام، أليس كذلك، يا تامي؟ ثم انك فتاة صغيرة شجاعة، رغم تحجر رأسك.»

فكرت تامسن في انها لا تريد ان تتشاجر معه الآن، وبدلاً من ذلك أخذت رشفة من حسائها، ثم قالت بشيء من الجمود: «هذا الحساء طيب، هل صنعته بنفسك؟»

« كلا، لقد أعدته لي مدبرة منزلي، قد أحسن أنا العمل المنزلي بوجه عام، ولكنني لم أصل بعد إلى حد طهي الحساء، مع الأسف.»

لم تستطع ان تمنع ضحكة صدرت عنها تنم عن عدم التصديق: «انت تحسن العمل المنزلي؟ انك بالنسبة إلى العمل المنزلي...» ونظرت حولها تبحث عن شيء تشبهه به: «مثل قط بري يدور هنا في المخزن ليقتل الجرذان.»

«قط بري؟ حسناً، ربما كنت أمسكت ببعض الجرذان ذات يوم، فانتبهي.» قال ذلك يهددها مازحاً، ثم سألها: «اتريدين مزيداً من الحساء؟»

«كلا، شكراً... ربما فيما بعد.»

ومالت برأسها إلى الوراء ثم اشاحت بوجهها وأغمضت عينيها.

«اسمعي، يبدو عليك الانهاك، لماذا لا ترتاحين قليلاً؟ انك تعلمين انه يمكنني ان اتدبر أمري هنا جيداً.»

أجابت بحزم: «كلا، فالنعاج مسؤولتي انا ولن اتركها.» وبينما هي تقول ذلك، إذا بها ترى نعجة أخرى في حالة الوضع، ولكن ما ان وقفا يراقبانها، حتى بدا لهما واضحاً انه لن يكون بمثل السهولة التي مرت بها النعجة السابقة.

جلسا بجانب النعجة اكثر من ساعة يشاركانها محنتها المتفاقمة وهي تكافح جاهدة ولكن دون فائدة، إلى ان جلست تامسن اخيراً القرفصاء ونظرت إلى زاك وهي تهمس مرتجفة: «لا استطيع احتمال هذا... انها المرة الأولى التي تحمل فيها... انها لن تستطيع الولادة ابداً، انني سأذهب لاستدعاء البيطري.» قالت ذلك رغم علمها بالثغرة التي سيحدثها أجر البيطري في ميزانيتها.

كانت تعلم ان فلاحين كثيرين، وبمن فيهم والدها، لم يكونوا يهتمون باستدعاء بيطري لأجل نعجة أو حمل،

فالعجول والأبقار غالية الثمن، ولكن الأغنام ليست كذلك، ولكن تامسن لم تكن مشاعرها تتحمل رؤية حيوان يتألم.

ما ان ابتدأت تنهض، حتى هتف بها زاك: «انتظري، ثمة شيء يحدث آه، تباً، تباً تباً، لذلك. اظن الرأس قادماً أولاً.»

«سأذهب إذن لأتصل بالبيطري.»

فقال بعنف بينما كان ينهض هو أيضاً: «كلا، انتظري، دعيني احاول، أولاً.» وعندما التفتت اليه، تابع يقول: «اسمعي، انك لن تخسري شيئاً، ففي الوقت الذي يصل فيه البيطري، يكون الأوان قد فات، صدقيني.»

ترددت تامسن قليلاً ولكنها ما لبثت ان أومأت تقول: «لا بأس.»

وضع زاك يديه في دلو الماء، وعندما اخذت تامسن تحدق فيه بخوف، اخذ يدعك يديه وذراعيه بالصابون ثم تقدم اليها بينما كانت هي جالسة بجانب النعجة.

نظر اليها لحظة ثم جلس وهو يقول: «كفى، لا أريد بكاءً أو ولولة، وإلا أرسلتك إلى بيتك.»

نظرت إليه برهة بصمت: «انني لا أبكي.» قالت هذا وهي تمسح، خلسة، دمعة سالت على وجنتها.

ولكن زاك لم يكد يسمعها وهو يصرف بأسنانه مقطباً وقد بدا في غاية التركيز، وهو يضع رأسه على ذراعه التي كانت ملقاة على ظهر النعجة، وبدأت انفاسه تتسارع لما يبذله من جهد.

نظرت تامسن إليه متسائلة، فهمس: «يا له من حمل كبير عليها ان تنجبه، اننا سنفقده إذا لم نكن حذرين، اسمعي، احضري إليّ حبلاً أو ما أشبه.»

نهضت من مكانها، ثم احضرت له لفافة حبال دقيقة كانت توجد في المخزن على الدوام، فأخذه زاك منها وأخذ يقيس قطعة منها ثم قطعها بسكين اخرجها من جيبه، ليبللها بعد ذلك، بماء وصابون.

ثم قال باختصار: «هذا حسن، انني سأحتاج إلى عون لرفعها، ساعديني على رفعها إلى الجدار، هذه الناحية، وبهذا يمكنني ان اسندها بساقي الصحيحة.»

كان قد استلم منها السيطرة على الموقف كلياً، ولكن هذا جعل تامسن تشعر بالإرتياح، أمسكت بالنعجة بينهما، والتي اخذت تثغو محتجة، ثم نقلاها معاً إلى الجدار حيث وضعاها على الأرض بعناية بالغة، ثم امسك زاك قطعة الحبل بين اصابعه ويده الأخرى على بطنها.

قال لها آمراً: «امسكي بها، وعندما أقول (الآن) اجذبيها بعيداً عني، وبعنف. انتظري... انتظري...» وأخذ الاثنان يراقبان النعجة باهتمام.. «الآن.»

وعندما جذبت النعجة إستند إلى الجدار وجذب طرفي قطعة الحبل.

«لا بأس، إرتاحي.» كان يلهث من التعب، ولكنه قال يطمئنها: «سننجح، اتعهد لك بذلك، هل أنت مستعدة؟ والآن... اجذبي مرة أخرى.» فسحبت عدة مرات، وإذا بالحمل.. وكان أسود اللون، ملقى هامداً على الأرض المغطاة بالقش.

جلست تامسن واخذت تدعك جسمه، ولكنه بقي هامداً، فحمله زاك وهو يشتم بصوت خافت ومدّده على ركبتيه ثم

اخذ ينفخ في فمه بقوة، ولكن جسده ما زال لا يبدي أية حركة تدل على الحياة.

«آه، دعه يا زاك، فهو ميت.» كانت خيبة الأمل التي شعرت بها، بعد بهجة العمل والنجاح في توليد النعجة، كانت لا تحتمل.

فقال: «إخرسي، انني لا استسلم بسهولة.»

وقلب الحمل على ظهره ثم اخذ يمسد قلبه مرة بعد مرة بيدي محترف، ومن خلفه اخذت تامسن تحدق مندهشة.

وإذا بها تسمع صوتاً ضئيلاً هو أشبه بصوت قطيطة مولودة حديثاً، تبعته عطسة خفيفة، فقال بفرح:

«لقد نجحت.»

والتفت زاك اليها وهو يقول هذا بعد ان وضع الحمل على الأرض، وقد ابتسم ابتسامة الفوز، ثم تابع يقول: «ان لديك هنا حملاً صحيحاً قوياً، فهل لك ان تعطيه لأمه؟»

ومن دون ان تتكلم تامسن حملت الحمل ثم وضعته إلى جانب أمه.

ولكنها طوال الوقت الذي كانت تقوم فيه بهذه المهمات بشكل آلي، كانت تشعر بوخز في جسمها وكأنها على وشك الوقوع فريسة للإنفلونزا.

الفصل الخامس

« حسناً، لقد نجحنا.»

كان زاك يجفف يديه بالمنشفة وهو ينظر إلى تامسن بمودة لإنهاء هذا الكفاح المشترك لإنقاذ حياة الحمل.

«كلا، بل أنت الذي نجحت، يا زاك وشكراً لك.» أشاحت بوجهها عنه وأضافت ببساطة: «إنني شاكرة جداً في الحقيقة، وأنا مسرورة لوجودك هنا.»

فهز كتفيه: «آه، إنني مسرور لتمكني من المساعدة.» وابتسم بأدب وهو يشير إلى الحمل بإبهامه.

وعندما ابتسمت مترددة، قال: «إن لدي هنا تيرمس يحتوي على قهوة. هل تريدين شيئاً منها؟»

«نعم، من فضلك.»

ملأها هذا التكلف المؤدب في الحديث، بحزن عميق. ذلك أن تلك السنوات التي كانا يعرفان أثناءها بعضهما البعض وخلال كل المشاجرات والقتال، كانا على الدوام منفتحين تجاه بعضهما. فحيناً كانا يتقاذفان بالشتائم، وبعد ذلك مباشرة إذا بهما يتصالحان بسرور وبهجة. والآن حتى بعد تلك المشاركة البهيجة القصيرة قد عاد ذلك الصدع بينهما مرة أخرى وعادا إلى التكلف البارد المصطنع والذي اصبح اسوأ مما كان عليه عندما كانا يتواجهان بالعداء العنيف المكشوف.

شغلت نفسها بالقهوة.ثم سألته:

«هل تريد القهوة بالحليب أم بدونه؟»

«بدونه، من فضلك.»

وعندما عادا للجلوس على الأكياس، انتفض قليلاً، ثم مدّ ساقه أمامه.

فقالت دون تفكير: «هل... هل تؤلمك ساقك على الدوام؟»

«كلا. فقط عندما اتعبها. إنني لا أنفك عن معالجتها بالشكل الذي ينمي عضلاتها وما أشبه.»

«آه.» قالت ذلك وهي ترشف قهوتها الساخنة شاعرة بالدفء، لقد احسن زاك بإحضار القهوة، فهي تساعدها على البقاء مستيقظة بقية الليل...

* * *

«استيقظي، يا تامي.»

«هممم...»

«قلت لك استيقظي.»

فغمغمت:

«إنني لست غافية.»

سمعته يقول هامساً: «كلا؟ انت غافية منذ ساعتين.»

«ماذا؟»

ثم نظرت حولها بعينين زائغتين: «كم الساعة الآن؟»

فنظر إلى ساعة معصمه، معرضاً إياها إلى ضوء النهار الشاحب المتسرب من شق في باب المخزن: «حوالي السادسة. أظن بإمكانك العودة إلى البيت الآن.»

نظرت إلى الزاوية حيث كانت نعجتان ما تزالان واقفتين

في انتظار الولادة، ثم سألته: «ولكن ماذا بالنسبة إلى النعجتين الباقيتين، الم تلدا بعد؟»

«كلا، وأظن بإمكاننا أن نتركهما لبعض الوقت دون أن يحدث شيء لهما. هيا بنا.»

وإذ كانت ما تزال مشوشة الذهن سارت معه غير قادرة على المناقشة خارجة من مخرن الغلال عابرة الفناء إلى البيت حيث أخذها زاك إلى المطبخ، وهو يقول:

«يبدو عليك الإنهاك. إذهبي وارتاحي.»

كان هذا صحيحاً فقد تراكم عليها كل إرهاق الأيام والأسابيع الماضية... قالت بإصرار: «كلا أنا بخير تماماً. إنني... إنني سأصنع إفطاراً لنا.»

تنهد ساخطاً: «يا لك من صغيرة عنيدة. حسناً، كما تريدين لنتناول الافطار.»

« لكن سأذهب اولاً لأغسل يدي وانت يمكنك غسل يديك ووجهك في الحوض هنا.»

* * *

وجاءها صوت زاك من أسفل السلم: «تامي!»

«نعم؟»

«هل يمكنك المجيء؟ أنت مطلوبة.»

«لن أتأخر...»

«كلا، بل الآن.»

«ما الذي حدث؟» وترددت لحظة... أتراه أحرق الطعام؟جففت يديها بسرعة وأسرعت بالنزول.

دخلت المطبخ قبل أن تدرك أن زاك لم يكن بمفرده،

فلم تستطع التراجع. كان يتحدث إلى جاك بيسلي، ساعي البريد المتوسط العمر والذي يدور في كافة أرجاء هذه المنطقة الريفية بعربته الفان.

«صباح الخير يا جاك. إنك مبكر.»

«صباح الخير، يا تامسن.» كانت ليلة متعبة، أليس كذلك؟»

ردت على الرجل بهدوء: «نعم، كانت كذلك حقاً. فقد كان ماتيو مسافراً، فتكرم السيد برنشارد بتقديم العون لي في توليد النعجات.»

وألقت نظرة شكر على زاك وهي تتابع:

«من حسن حظي أنه كان هنا، لأننا صادفنا حالة ولادة صعبة جداً، ولولاه لماتت النعجة والمولود.»

فقال الرجل بوجه جامد: «هذا حسن. هذا حسن.»

قالت له ببرود: «سأحضر إليك فنجان شاي.»

«آه، كلا لا تزعجي نفسك.» تزعج نفسها؟ إنها لا تتذكر مطلقاً مرة رفض فيها جاك فنجان شاي. وكان هو يتابع قائلاً: «إذا تكرمت بوضع توقيعك على استلام هذه الرزمة. إنها المجموعة الثانية من اللقاحات.»

ثم ناولها وصل الاستلام مع قلم، فاستدارت إلى المائدة لتوقعه.

«حسناً، شكراً يا جاك.»

«شكراً يا تامسن. وداعاً يا سيد ترنشارد.»

حين خرج ساعي البريد استدارت إلى زاك قائلة بعنف: «حسناً، أشكرك جداً.»

«لماذا؟»

«إنك تعلم جيداً لماذا، يا زاك ترنشارد ما الذي سيقوله ساعي البريد الآن... إنك في السابعة صباحاً، تتناول طعام الإفطار هنا وكأنك في بيتك.»

«أجلسي ولا تكوني حمقاء.»

«حمقاء؟ لقد تدمرت سمعتي. أتعلم ذلك؟»

«آه، يا تامي. لا تعقدي الامور. لم يعد أحد يهتم بالسمعة بعد الآن.»

«حسناً، أنا أهتم بذلك.» وضربت المائدة بقبضتها. «وعلى كل حال، فأنت تعلم جيداً ما الذي سيظنه الآخرون.»

«كلام فارغ. وما الذي يدفعهم إلى الظن؟»

«كما سبق وقلت لك، لأنك هنا في هذا الوقت.»

فانفجر ضاحكاً: «لا تكوني سخيفة.»

وتلاقت نظراتهما، وإذا بالإتزان يبدو على وجهه وهو يقول: «حسناً، إنك تعلمين بأنك لست إلا...» وسكت ثم عاد يقول: «إننا نعرف بعضنا البعض طوال حياتنا، فأنت كأختي الصغيرة.»

لا بد أن زاك لمح شيئاً في وجهها، لأنه تابع قائلاً: «آه، يا تامي لماذا تثيرين اعصابي دوماً؟ لقد امضينا، نحن الاثنين، ليلة مرهقة فاجلسي وتناولي الإفطار.»

وسحب كرسياً لتجلس عليه، ثم تحول إلى الموقد بينما جلست وهي تسند رأسها بين يديهاوتسمع بشكل مبهم صوت قرقعة الاطباق وتشم رائحة القهوة العبقة وترى زاك وهو يروح ويجيء.

لكن عندما انزلق رأسها ليستقر على ذراعها مستريحاً على مرفقها لم تعد ترى من زاك سوى

خيال غامض، وهذا الخيال كان واقفاً بجانبها الآن يتحدث إليها. ولكن الإرهاق كان قد سيطر عليها حتى استسلمت الى سبات عميق.

* * *

أخذ عصفور يغرد على غصن شجرة الكمترى العتيقة خارج نافذة المطبخ، بينما كانت أشعة الشمس تتسرب من خلال الستائر. فرفعت رأسها وعندما تذكرت كل شيء، جمدت نظراتها على السقف.

ثم نظرت إلى ساعة الجدار. وإذا بالذهول يتملكها. وهي ترى أن الوقت كان ظهراً. لكن المنبه كان مقفلاً، ولا بد أن زاك قد فعل ذلك، يا له من شخص مليء بالمتناقضات. فهو خشن، عنيد قاسي ومع ذلك بدا لها امس من الحساسية والحنان ما جعل عينيها تغرورقان بالدموع.

لكن عليها أن لا تسمح لنفسها بأن تعتبره شيئاً سوى عدوها. فبعد الليلة الماضية اصبح من السهل أن تتخلى عن الحذر. ولكنها كانت تعرف زاك جيداً بحيث أنها كانت تعلم أن لا شيء يمكن أن يغير ما سبق وصمم عليه بالنسبة إلى المزرعة.

أما بالنسبة إلى شعورها نحوه، فهذا سيدمرها كما دمر سارا من قبل، عندما احبت زاك فدمرها هذا الحب.

* * *

www.elromancia.com

«آه، كلا.»

ونزلت تامسن من مقعدها في الجرار. لقد تعطلت الرافعة الميكانيكية مرة أخرى، وهذا يعني، مرة أخرى، قائمة بأجر التصليح من كاراج جيم هيويت.. وقد يكون الأمر اسوأ من ذلك فهذه المرة لن يكون بإمكان جيم أن يصنع شيئاً. فسيارة البيطري التي ينقل بها الحيوانات هي أفضل حالاً ومظهراً من هذا الجرار الذي ينبغي أن يوضع في المتحف الزراعي للأدوات الزراعية القديمة.

ولكن، ليس هذا بالأمر الهام... إن بإمكانها أن تملأ العربة المقطورة بنفسها، وبسرعة، وذلك قبل أن يعود ماتيو من حيث كان يتفقد المواشي، ويصر على القيام بالمهمة بدلاً منها. والتقطت المذراة، وهي تسد أنفها اشمئزازاً، ثم أخذت تتسلق ربوة السماد المتعفن.

كانت قد أمضت في هذا العمل نصف ساعة أو نحو ذلك، عندما لمحت من زاوية عينها فارسين في الطريق القديم المؤدي إلى المراعي، والتي تمتد بمحاذة جدار فنائها مباشرة. كانا ما يزالان بعيدين تماماً، ولكن واحداً منهما كان يجلس على جواده الأسود مستقيماً باعتداد واضح.

قاومت دافعاً لها لأن تلقي بالمذراة، ثم تهرب لتختبىء في مخزن الغلال. وبدلاً من ذلك، شددت قبضتها على المذراة، ثم تابعت العمل.

سار العمل بهمة ونشاط، ولم يسبق قط أن كان حمل

السماد من قبل أفضل مما كان يبدو الآن. فقد كان الجدار هنا من الارتفاع في هذه الزاوية من الفناء بحيث يمكن للفارسين المرور من دون أن يلحظاها، هذا إذا أخذت تعمل بهدوء كامل.

«صباح الخير، يا تامسن.»

رفعت بصرها بالرغم عنها لتجد نفسها تتبادل النظرات مع زاك. كان جالساً على السرج بشكل جانبي وقد أراح يده على قمة الجدار وأخذ ينظر إليها بطريقة تملكها فيها نفس الشعور الذي كان تملكها عندما عثروا عليها، وكانت في الخامسة من عمرها، وهي تبني بيوتاً من مسحوق الفحم.

وتمتمت تجيب كارهة: «صباح الخير.»

نظرت إليه بسرعة ثم حولت عينيها إلى مرافقته.

كانت المرأة قد جاءت حديثاً إلى القرية، وقد رأتها تامسن مرتين أو ثلاث من قبل، إحدى تلك المرات في مكتب البريد حيث كانت خارجة منه، ومرة أخرى مستقلة سيارة رياضية خارج البيت المغطى بالقرميد الأحمر الذي اشترته. وفي كل مرة كانت تبدو بالغة الأناقة حتى في نظر تامسن التي لم تكن تهتم بالاناقة فكانت تبقى حوالي العشر دقائق بعد رؤيتها لأناقتها تلك، يتملكها حنين داخلي مؤلم.

وانتبهت إلى أن زاك كان يتكلم:

«هل سبق لك وتعرفت إلى يولاند؟»

«أنا... كلا.» وأومأت بأدب إلى المرأة التي

منحتها ابتسامة وهي تقول: «مرحباً، يا تامسن.» ومالت عن ظهر حصانها مادة يدها إليها. وبعد لحظة دهشة، مسحت تامسن يدها القذرة بثوبها الخشن وصافحتها.

تابعت يولاند تقول:

«لقد عرض عليّ زاك أن يريني المراعي. اتعلمين أن لي هنا الآن حوالي ثلاثة أشهر من دون أن أرى شيئاً تقريباً هنا؟»

أجابت تامسن بأدب:

«أحقاً؟ حسناً، دوماً الاستقرار يستغرق بعض الوقت.»

«إننا ذاهبان إلى الشلال الذي كان زاك حدثني عنه... إنه خارج الطريق العام.»

فقال زاك: «إنه وادينا، اتذكرين يا تامي؟ إنه المكان الذي كنا نذهب إليه عندما كنا أولاداً.»

أغمضت عينيها لحظة إزاء الألم الذي سرى في كيانها. أيمكن أن يتصور لحظة واحدة أنها ستنسى طوال حياتها ذلك المكان الرائع، حتى انهم كانوا يسمونه الوادي السري وقد احتفظوا به بينهم هم الثلاثة. وها هوذا الآن يكشف هذا السر إلى هذه المرأة الغريبة.

ثم قالت بجمود: «نعم، أذكر هذا.»

«أتحبين أن تأتي معنا؟»

أخذت تحدق إليه. إنه يعلم أن هذا ليس بمقدورها... فقد كانت الدعوة عفوية فارغة كتلك الدعوات التي كان يلقيها إليها منذ سنوات.

«إنني مشغولة جداً.»

«حسناً، هل انتهت ولادة النعاج؟»

«نعم، انتهينا من ذلك منذ اسبوع.»

«وكيف حالها؟»

«بأحسن حال.»

أرادت أن تشكره مرة أخرى لمعونته تلك لها، ولكنها لأمر ما لم تستطع أن تأتي على ذكر ذلك، لقد كانت منتبهة تماماً إلى أن عيني يولاند كانتا مسمرتين عليها، فأدركت أن اقل إشارة إليها كفيلة بأن تجعل الدم يندفع إلى وجنتيها.

عدّل في جلسته وهو يقول: «حسناً، ما دمت واثقة من انك لن تأتي معنا... هل أنت جاهزة يا يولاند؟»

فاومأت المرأة، وبعد أن رفع مقبض سوطه بتحية عفوية سار والمرأة تتبعه، مجتازاً الطريق العام، بينما وقفت تامسن تتابعهما النظر وهي تشعر بغيرة مرة تقبض احشاءها.

وعندما غابا عن النظر أخيراً، عادت إلى عملها، وإذا بها تجد ان حذائها قد غاص في السماد. لو كانت في غير هذا الوقت لضحكت ولكنها الآن عبست وهي تغرز المذراة لتثبت نفسها قبل أن تنزع اول قدم، وتتبعها بالأخرى.

كانت تنزل من فوق كومة السماد بصعوبة عندما جاء ماتيو عابراً الفناء إليها.

«كان عليك أن تتركي هذا لي، يا تامسن.»

«شكراً يا ماتيو، ولكنني استطعت القيام بذلك.»

«هل تلك التي رأيتها مع السيد زاك هي السيدة شالمر؟»

قالت تامسن وظهرها إليه: «نعم.»

«إذن فقد ذهبا للنزهة على الجياد، أليس كذلك؟ يقولون في القرية إنها طلّقت حديثاً...»

فاندفعت الكلمات من فمها:

«كيف حال الخراف؟»

«آه، بأحسن حال. لا شيء يستدعي القلق في الحظيرة.»

الفصل السادس

انقضت تامسن على الشطيرة التي بقيت في يدها حوالي خمس دقائق، تلتهمها بحقد وهي تفكر بيأس، لا يوجد وسيلة للهرب من واقع الحياة... وهي لديها الكثير مما تهرب منه الآن... تملكها الأسى وهي تفكر في ذلك، فقوائم الحساب ودوماً هناك قوائم حساب... تتدفق عليها ولا تنتهي أبداً، فالذي يزودها بالطعام وهو الذي طالما صبر عليها، أخذ يلح الآن في طلب نقوده، وهذه رسالة تلقتها هذا الصباح من مدير البنك يطلب منها ان (تشرفهم) بزيارة لحديث قصير عن وضعها، وذلك في أقرب وقت يناسبها.

ثم هناك ماتيو، وخجلها من انها إزاء عمله الشاق لديها، لا تمنحه اكثر من مصروف الجيب لقد كانت بحاجة حقيقة له أمس عندما وقف اللحام، فاستلم هو الحديث إليه بينما توارت هي...

وأخذت تامسن تحدّق امامها بعينين لا تريان... هل من المعقول انها بعد ان أمضت حياتها كلها في المزرعة، انها لم تخلق لتكون فلاحة؟ تنهدت وهي تعود إلى تقطيب حاجبيها... والذي ما انفك ملازماً لها هذه الأيام... وشعرت بضغط يكاد يكون جسمانياً وكأن حملاً ثقيلاً يضغط على كتفيها.

تنهدت مرة أخرى وهي تنهي بقية الشطيرة، ثم تتسلق

www.elromancia.com

إلى الجرار مرة أخرى ولكن، عندما مدت يدها تدير المحرك، جمدت من دون حراك، انه حتماً ذلك البالون الذي يطير بالبخار، والذي كانت شاهدته صباح أمس، كان يطير نحو الوادي متجهاً نحوها، وكأنه برتقالة ضخمة، ومن دون صوت. وعندما رفعت بصرها تنظر اليه سمعت صوتاً أشبه بالفحيح.

عندما أخذت تحدّق فيه مأخوذة، عاد فارتفع في الهواء مبتعداً نحو المنحدرات الصخرية لتل المزرعة، ما اجمله، وما أروع الركوب فيه والأرض منبسطة تحته، حيث ترتفع فوق كل هذه الأشياء مثل قوائم الحسابات غير المدفوعة ورسائل البنك. واخذت تفكر كيف يجيء كل هذا في آن واحد؟ وهل الحياة تستحق كل هذا؟ وتملكتها موجة من الخوف، أتراني سأرضخ في النهاية، أم انني أركض في طريق مسدود؟

مهما كان الجواب، فإن امامها عملاً الآن عليها ان تقوم به، وهكذا أدارت مفتاح المحرك، ثم اخذت في نثر السماد مرة أخرى.

ولم ترفع نظرها إلا بعد ان شعرت بظل يمر امامها، فأجفلت. كان البالون قد اصبح فوق رأسها مباشرة، لا يكاد يعلو اكثر من خمسين قدماً، ما جعلها تتمكن من رؤية شخصين في السلة التي تتدلى منه، وإذ اخذت تنظر اليه، اجتاز الحقل ثم هبط على رقعة منبسطة من الأرض في الناحية الأخرى من الجدول حيث أخذ يصعد ويهبط بخفة قبل أن يمس الأرض.

خرج أحد الشخصين فأمسك بالسلة، ثم ارتفع صوت

يقول شيئاً أشبه بكلمة (تعالي). ولكنها بقيت حيث هي، إلى ان اخذ الرجل ينظر حوله، وهذه المرة سمعته يقول بفروغ صبر: «تعالي إلى هنا يا تامي.»

وكان هذا واضحاً تماماً، فهبطت من الجرار، ثم ركضت نحوهما.

«خذي، امسكي بهذه.» وكان زاك يلهث تقريباً وهو يناضل وحده لكي يقيد هذا البالون إلى الأرض.

أمسكت بالناحية الأخرى من الحافة الجلدية، وصرفت بأسنانها عندما كادت ذراعاها تنخلعان والبالون يرتفع فوق الرؤوس للمرة الأخيرة، ثم يعود فيجثم على العشب.

جاءت سيارة جيب مجتازة المرعى، ثم قفز منها ثلاثة رجال، فأمسكوا جيداً بالسلة، ثم أحكموا ربط الحبال، عند ذلك أرخت تامسن قبضتها واخذت تحرك كتفيها بحذر، ثم جرؤت على النظر إلى زاك مباشرة لأول مرة، وكان هو يضحك مبتهجاً وعيناه تتألقان، وعندما بدا لها كعادته كلما أخذ يمزح بطيش، شعرت بتلك القبضة المؤلمة تعتصر قلبها مرة أخرى.

«شكراً، يا تامي.»

قالت بشيء من البرودة: «أرجو ان لا تكون أفزعت اغنامي.»

«لا أظن ذلك.» وهز رأسه هازلاً، ثم استدار يساعد الآخرين، بينما ابتعدت عنهم ووقفت بعيداً وهي تستمع إلى حديثهم المليء بالحيوية عن غلاف البالون وبطانته الداخلية، وكل ما يتعلق به، وكان اهتمامها كله منصباً

على زاك، ولكنه كان قد نسي كل شيء عنها... وأخيراً استدارت مبتعدة وقد أرخت كتفاها قليلاً.

«تعالي يا تامي، تعالي لنزهة قصيرة.» وكان هذا أشبه بأمر منه بدعوة، ولكنها عندما رأته يتقدم نحوها، ابتعدت قائلة: «كلا، شكراً...»

«آه، هيا... ان الصعود في الجو رائع تماماً.»

فقالت: «كلا، الأفضل ان لا أصعد.» كانت لا تستطيع النظر اليه، ولهذا أخذت تتكلم وهي تنظر إلى يديها.

«ماذا حدث؟ لا اظنك خائفة؟» وخفض من صوته: «انني اتحداك.»

يا له من ماكر... انه يعلم انها لم ترد تحدياً في حياتها ومن ناحية أخرى، اذا هي وقعت من السلة فستصاب بأكثر من ارتجاج في المخ وخلع الكتف اللذين أصيبت بهما يوم كان تحداها أن تسير على سطح الاصطبل المائل.

قال يحثها: «هيا، تعالي.»

وعندما جازفت بإلقاء نظرة أخرى عليه، رأته يبتسم وخلفه كان الرجل الآخر يقوم بعمل معقد في مكان الإحتراق من البالون، قالت بصوت ضعيف: «حسناً، ربما...»

جلست متمسكة بحافتي السلة بيديها وهي تحدق إلى أسفل حيث الصخور تتوج قمة تلة ويذر تور.

وبسرعة بالغة كان البالون قد أوصل بقارورة الغاز، وفكت أربطته، ومن ثم سبح البالون البرتقالي فوق رأسيهما مندفعاً نحو السماء.

قال لها زاك: «هل ستمضين الوقت مغمضة عينيك؟»

فردت ساخطة: «كلا، طبعاً.» ثم فتحت أول عين بحذر ثم

الثانية وهي تهتف: «أوه ه ه.» في الأسفل، كانت المراعي والحقول قد أصبحت عبارة عن مربعات ضئيلة مبقعة بالغابات هنا وهناك، وفي الوادي كانت قرية سكومب، ومنزل زاك محاطين من كل الجوانب بجر من النباتات الشديدة الإخضرار، والأكواخ ذات السطوح القش والجدران البيضاء، لقد بدا لها بيت زاك أشبه بلعبة طفل، ومن الوراء كانت المراعي تترامى نحو الأفق حيث استطاعت أن ترى الخيط النحيل والذي هو البحر.

هزت رأسها بعجب: «يا للروعة.»

«نعم، انه منظر رائع، انني افكر حقاً في أخذ بعض الدروس في قيادة البالونات.»

حملقت فيه برعب: «أتعني انك لم يسبق لك ان تلقيت دروساً في هذا الشأن؟»

فابتسم قائلاً: «بل تلقيت بطبيعة الحال، فلا تخافي يا تامي كنت أمزح فقط.»

«آه.»

ولكنه عندما زال الخوف الذي كان تملكها، تابع يقول بلهجة عفوية: «نعم، لقد تلقيت درساً أمس... ودزينة قبل ذلك.» اضاف الجملة الأخيرة بعد ان ارتجف قلبه وهو يرى النظرة التي بدت في عينيها: «وطبعاً أنت لا تظنين ان من الممكن ان اجازف بإحضارك للطيران إذا كنت لا اعرف القيادة، أليس كذلك؟»

فقالت عابسة: «لا أدري، وبعد فأنت دوماً تقول لي إنني عقبة في طريقك، وهكذا سيكون حظك كبيراً اذا سنحت لك فرصة للخلاص مني.»

«هذا صحيح، وانا لم افكر في هذا، ربما من الأفضل لك ألا تقفي بقرب الحافة... فقد يكون في هذا إغراء كبيراً لي، وعلى كل حال، ما رأيك في لعبتي الجديدة هذه؟»

«انها لك إذن، أليس كذلك؟» وحاولت ان لا تبدي اهتمامها بذلك.

«طبعاً، أو على الأقل، هي آخر مشاريع أسرة ترنشارد، والتي هي سلسلة من أمور التسلية. وعندما يتعبون من اصطياد الأطباق الفخارية الطائرة وغيرها من أمور التسلية، نحضرهم إلى هنا ساعتين أو نحوها، ثم نرسلهم بعد ذلك إلى بيوتهم وقد حل بهم التعب إلا انهم سعداء، وبعد ذلك عدة مئات من الجنيهات.»

واخذ ينظر إلى الأرض بإمعان: «انظري، ذاك هو رجل لسكومب.»

«أين؟ لا يمكنني رؤيته.»

«انه هناك.» تابع وهو يشير بإصبعه: «اترين تلك البقعة المزروعة هناك؟ انه...»

«آه نعم، لقد رأيته.» وعندما رأت أخيراً ما يشبه عود ثقاب والذي كان رجل لسكومب، وكان عبارة عن صخرة ضخمة من الصوان، بارتفاع الانسان ثلاث مرات، والذي كان يقف وحده وسط المرج منذ خمسة آلاف عام، ارتجفت كما اعتادت ان ترتجف عندما كانت طفلة كلما رأته أو مرت صورته في ذهنها.

قال: «سرعان ما سيحل عيد الربيع، وهو شيء افتقدته طوال السنوات الماضية، هل ستذهبين لتحتفلي به في ريتوال؟»

فأجابت: «هذا... هذا ما أتوقعه.»

«ان الوزن يخف.»

وتحول إلى المحرقة يزيد من دفقة اللهب الذي ارتفع هادراً، وبعد ذلك بلحظة، شعرت بالسلة تحت قدميها تتأرجح برفق، ثم ترتفع.

سألها: «هل أنت مسرورة؟»

«نعم.»

ولكنها لم تكن كذلك، ذلك انها في ذلك الجزء من الثانية، قد أدركت الحقيقة، متى حدث هذا؟ اخذت تتساءل عن ذلك بتبلد، في أي لحظة بالضبط تغير شعورها نحو زاك، وذلك فوق كل ما يفصل بينهما؟ أو لعل ذلك الاحساس كان موجوداً على الدوام، منذ كانت طفلة تتملكها الافكار عن إعجاب البطل؟ مهما كانت الحقيقة فهي لن تتمكن من اغماض عينيها عن الحقيقة مرة أخرى، ولكن هذه المعرفة لم تدخل إلى نفسها أي بهجة، وإنما فقط نوعاً من الهدوء الغريب اليائس.

سألها بعدما رأى وجهها: «هل انت واثقة من انك بخير؟ انك شديدة الشحوب، ان بإمكاننا ان نهبط إلى الأرض ساعة تشائين.»

«كـ... كلا، فأنا بأحسن حال.»

وقفا الى الحافة ينظران إلى أسفل، لقد ابتعدا الآن عن القرية واصبحا فوق المراعي.

قال برقة: «طوال وقت غيابي، كنت احلم بهذا المكان، ليس ثمة مكان يضاهيه على وجه الأرض، أليس كذلك؟»

فقالت: «نعم، لا يوجد.»

حتى حبهما المشترك لهذه الأرض، كما اكتشفت بسرعة، يمكنه ان يسبب لها عذاباً عنيفاً.

«تذكري، في خلال اسابيع قليلة سأتمكن من الطيران فوق مختلف التضاريس الطبيعية والبلدان.»

«أحقاً؟»

«نعم، سأتمكن من الطيران فوق وادي النهر الكبير.»

«أين يقع هذا؟ في امريكا؟»

«نعم، هذا صحيح، ان زميلاً سابقاً لي في الجيش يدير بعض انواع الإجازات المغامرة، وأنا أفكر في عقد صفقة معه.»

«إذن، فسترحل بعد وقت قصير؟»

فنظر اليها ساخراً: «نعم، ولكن لا تقلقي، فسأعود خلال أسبوع.»

قالت وهي تغرز اظافرها في الجلد الذي يكسو حافة السلة: «إذن فقد جئت إلى هنا حقاً لكي تبقى، هذه المرة؟»

فقال ببرودة: «طبعاً، وقد سبق واخبرتك بهذا، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكن...»

«ولماذا لا أعود؟»

«لا أدري، اظن ان حماستك، في أغلب الأحيان، لا تدوم طويلاً.»

«آسف، إذ أخيب املك، ولكنني لم أغير فكري، انني هنا لأبقى من الآن فصاعداً، وإذا كنت تتساءلين، نعم، فقد تصالحت مع والدي. ان هذا لا يعني اننا سنصبح صديقين متفاهمين، بالضبط. ان المرارة السابقة ما زالت موجودة

بيننا، ولكننا عقدنا ما يمكنك ان تسميه (هدنة غير مسلحة).»

«وكيف... كيف حاله؟»

لقد شعرت تامسن، بالرغم منها، بشفقتها تتحرك نحو ذلك الرجل الذي كان يوماً ما، في غاية الحيوية والنشاط، فأصبح الآن طريح الفراش.

أجابها: «انها جملة معتادة، كما اظن أليس كذلك؟»

«آسفة، يا زاك.» لقد سمعت نفسها تقول كلمات لم تكن تتوقع قط انها ستتلفظ بها.

«حسناً، انني أقوم نحوه بكل ما استطيعه، فهو في مستشفى خاص ممتاز هناك في بلدة توروباي، ويحظى بعناية كاملة وغير ذلك، وأذهب لزيارته كلما سنحت لي الفرصة، لقد كنت هناك الليلة الماضية، وفي الواقع...» وسكت قليلاً: «كنا نتحدث عنك.»

«عني أنا؟»

«نعم، ويبدو ان كلامك كان صحيحاً، ولا أدري ما إذا كان ضميره قد استيقظ وأخذ يخزه، ولكنه اعترف الآن بأن والدك قد تعرض إلى... نوع من الضغط لكي يشتري المزرعة.»

«حسناً، هذا كرم اخلاق من والدك.»

لم تغب عن زاك المرارة التي بدت في لهجتها، ولكنه تابع: «وهكذا... قررنا أن من العدل ان نزيد المبلغ الذي عرضناه عليك.»

«ماذا تعني؟»

«سنعطيك ما كان والدك دفعه ثمناً للمزرعة منذ أربعة

اعوام... وهو ثمن أعلى كثيراً من الثمن الذي تستحقه في الوقت الحاضر.»

«كلا.»

قطب حاجبيه بعنف: «وما السبب في ذلك؟»

«لأنني لا اتسول الإحسان، هذا هو السبب.» أدركت انها بعد ان تهدأ وتتعقل، ستندم على جنونها هذا، ولكن كرامتها لم تسمح لها بالسكوت عن فكرة قبول الاحسان من آل ترنشارد وخصوصاً زاك منهم.

فضرب جانب السكة بقبضته: «انها كبرياء آل وستماكوت مرة أخرى.»

كادت تقفز مذهولة لإدراكه ما تفكر فيه، فدست يديها في جيبي سترتها الواسعة، بعنف وهي تقول: «نعم، اذا شئت، ولكن لا شيء قد تغير، على كل حال، فإن المزرعة ليست للبيع.» لقد أرغمت نفسها الآن على نبذ كل شكوكها ومخاوفها التي تملكتها عندما توقعت الهزيمة.

نظر اليها بغضب هائل تملكها لرؤيته الرعب من ان يمسك بها ويقذفها من فوق جانب السلة، ولكن لم تدم ثورته هذه سوى لحظة شعرت معها بغضبه ينحسر ثم يتمتم برقة متناهية: «تامي.»

«أظن...» كانت اسنانها تصطك ما جعل من الصعب عليها اخراج الكلمات: «اظن هذه طريقة أخرى لآل ترنشارد في الاقناع الودي.»

«ما الذي تعنينه؟» وتوهج وجهه غضباً.

«أعني انك تجعلني، بأسلوب التحبب والتودد، هذا تجعلني أذعن.»

فأطلق ضحكة هازئة: «قد أحاول فعلاً تجربة تلك الطريقة لو انك كنت امرأة حقيقية... ولكنك حسناً... إنني أضيع وقتي مع طفلة مثلك، أليس كذلك؟»

ثم دس يديه في جيبه، وأدار لها ظهره ومضى ينظر إلى المروج تحته.

أخذت تامسن تحدق في المروج ايضاً، لحظة طويلة، وكانت الريح قد ابتدأت بالهبوب جاعلة عينيها تدمعان، فلو التفت إليها الآن، لظنها تبكي.

زمت شفتيها بشدة وأشاحت بوجهها هي أيضاً، هذا هو السبب إذن لإحضاره لها إلى هنا، بالطبع، لم يكن ذلك للنزهة، كما سمحت لها حماقتها بأن تعتقد، وإنما لجولة أخرى في معركته معها، انه يريد ان يحتجزها في مكان محدود لا يمكنها الهرب منه، ومن ثم يعيد الكرة مرة أخرى...

رأته يستدير وهو يقول: «اسمعي، يا تامي، انني اعلم كم يعني ويذرفور، أعني البيت، بالنسبة اليك، فهو يحمل لك ذكريات كثيرة، وصدقيني انني لا أريد ان اخرجك منه بالقوة.»

نظرت إليه بحذر، كانت لهجة مخلصة تماماً... ولكن ما الذي يقصده الآن؟

وكان هو يتابع قائلاً: «ما قولك في ان تبقي فيه، على الأقل في قسم منه؟ إن بإمكاننا ان نحول قسماً منه إلى شقة مختصرة مكتفية بذاتها، ان بإمكانك ان تبقي فيه، وتشتغلي عندي.»

«ماذا سيكون عملي عندك، بالضبط؟»

«حسناً، كل الأعمال الكتابية عندي غارقة في الفوضى.» وابتسم بأسى: «ان كل ما انا بحاجة اليه هو فتاة تنظم اشغالي، ان بإمكانك ان تتخذي مكتباً في منزلي و...»

فقاطعته تقول: «ولكنني لا احسن شيئاً من اعمال المكاتب.» لقد اذهلها عرضه المفاجيء هذا، ولم تستطع التفكير بذهن صافٍ.

«انني أذكر انك كنت درست مسك الدفاتر والطبع على الآلة الكاتبة في المدرسة.»

فهزت رأسها بعنف: «كلا.»

«قد يصعب عليك تذكر ذلك في البداية، ولكنك ذكية وسرعان ما يستقر بك الأمر.»

«كلا، لا أريد العمل في مكتب. انني فلاحة و...»

«ماذا حدث لكل أبقارك؟»

«ماذا؟»

وعندما اخذت تحدق إليه، شاعرة بالإرتباك لتغييره مجرى الحديث، أشار إلى اسفل، فأدركت ان تغيير اتجاه الرياح قد أعادهما إلى موضوع المزرعة، فأجابت باختصار: «لقد ذهبت.»

«اظنها أول ما كان عليك ان ترسليه إلى الذبح، أليس كذلك؟»

«نعم.»

فنظر اليها مبتسماً: «انني اتذكر كيف كنت تختبئين على الدوام في الخزانة تحت السلم، ولكن لا يمكنك الاختباء الآن، أليس كذلك؟»

وعندما لم تجب، تابع يقول بأسف: «وماذا ستفعلين عندما تكبر الخراف عندك وترسلينها إلى الذبح، وعلى الأخص ذلك الحمل الأسود الذي ولد على أيدينا مثلاً؟»

فقالت بحقد: «إخرس، تباً لك.»

هز رأسه حزناً لأجلها: «لن تكوني فلاحة حقيقية أبداً، يا تامي... وانت تعرفين ذلك.»

أخذت تفكر في ما بإمكانها ان تفعله غير هذا، وكادت هذه الكلمات تخرج من فمها، ولكنها كبحتها.

وفجأة، أشار بإصبعه إلى أسفل: «انظري إلى هناك، قد يصعب عليك رؤية ذلك من الأرض، ولكن من أعلى يبدو لك واضحاً، تلك هي أرضك... الغابة والتلة يدخلان إلى أرضي كالسهم، ان عليك ان تري أننا لا نستطيع العمل بنجاح وهذا يشقنا إلى اثنين.»

وقفت من دون حراك، تحدق إلى اسفل حيث كانت سيارة لا تكاد ترى، متوقفة في مكان بالغ الوعورة. لقد كان عنيداً للغاية، فهو سيتابع ويتابع... كما تبلي المياه الصخر، إلى ان يحصل على ما يريد، فهو زاك ترنشارد، الرجل الذي لا يفكر أبداً في الإذعان حتى يصل إلى غايته بأي شكل كان، وتملكها الذعر وهي تفكر في أن قوة إرادتها لا بد ان تذوب في نار عزيمته.

انحنت كتفاها بضعف، ما هي الفائدة من الإستمرار في محاربته؟ وبجانب ذلك فهو سيبقى هنا بقية حياته، فكيف ستستطيع تحمل ذلك؟ انها لن تشتغل عنده... كان هذا على الأقل، ما هي واثقة منه... ولكن رغم هذا فهي ستراه يومياً تقريباً، وأحياناً بشكل مفاجيء لا يترك لها وقتاً لتصنّع عدم

الاكتراث به، إنما سيتزوج يولاند... وربما سيكون له أولاد، أليس من الممكن بعينيه الحادتين الذكيتين، ان يدرك، عاجلاً أم آجلاً، ماهية مشاعرها نحوه؟ وقد يجعلها هذا هدفاً لمزاحهما، هو وزوجته، تامي الصغيرة... نعم، كانت تلاحقني دوماً منذ كانت طفلة في الرابعة... سنوات طويلة وليالٍ لا تنتهي.

انها طبعاً ستنساه مع مرور الزمن، تماماً كما نسيت الألم العنيف الذي كان تملكها لفقدانها والدها وسارة، ولوت شفتيها، يا للسخرية المرة في أن الرجل الذي دمّر حظ صديقتها في السعادة، هو الآن...

كان رجاؤها الوحيد هو أن تهرب الآن قبل فوات الأوان، فربما إذا لم تره قط مرة أخرى ستنساه. نعم، هذا هو الجواب بكل وضوحه وقسوته.

وكان زاك يقول: «انك تعلمين ان كلامي هذا منطقي، أليس كذلك؟» كانت لهجته أكثر رقة الآن، ولا بد انه لاحظ ضعفها، فأخذ يجهز على البقية الباقية من ترددها.

قالت له بتبلد: «منطقي؟ حسناً، ربما...»

فهتف في الحال: «انك لن تندمي على ذلك، يا تامي، انني واثق من هذا.»

بدأت ترتجف، بينما كان هو يتابع قائلاً: «سأتصل بالمحامي حالما أعود، وأنا سأراه غداً، على كل حال.»

«كلا.» لقد تملكها الذعر، يجب عليها أن لا تسمح له باستعجالها بهذا الشكل، خصوصاً وهي تشعر بكل هذا الضعف.

«امنحني مهلة أيام قليلة افكر فيها، أرجوك، يا زاك... أسبوع واحد، أرجوك.»

عبس قليلاً وهو يقول: «سأعطيك ثلاثة ايام، وإلا فسيكون الثمن حسب الجاري هذه الأيام.»

«لا بأس، ثلاثة أيام.» كان فمها جافاً من اليأس إلى درجة وجدت معها صعوبة بالغة في الكلام: «والآن، أرجوك ان تهبط بنا إلى الأرض.»

فمد يده يجر المقود بعنف، ومن ثم ابتدأ بالهبوط، وإذ ملأه الشعور بالإنتصار، دماثة وإيناساً قال: «لا بد أن تأتي معي في البالون مرة أخرى قريباً، فقد سرك وجودنا في الأعالي، أليس كذلك؟»

فأومأت برأسها حتى انها استطاعت أن تبتسم، ولكن الارتباك في نفسها منعها من الكلام.

«لقد كنت دوماً رياضية صغيرة رائعة، يا تامسن.»

إستقر البالون بارتجاج خفيف، فنزلت منه، هذا هو ما سينكرها به التاريخ («تامسن وستماكوت الرياضية الصغيرة الرائعة.)»

حدثت نفسها بذلك وهي تتعلق بأحد الحبال، وقد امتلأ قلبها أسى.

الفصل السابع

«لكنني لا استطيع قبوله، يا ليزا.»

واستدارت تامسن عائدة من المرآة إلى صديقتها التي كانت تجلس على كرسي: «كلام فارغ، يمكنك ذلك طبعاً، لقد كنت اخبرتك، بعد وضعي للتوأمين، بأن مقاسي لن يعود إلى قياسه السابق أبداً مرة أخرى. لقد ناضلت كثيراً في سبيل ذلك...» ورغم نبرتها الهادئة إلا ان تامسن لم تستطع ان تغفل نبرة ألم عفوية في صوتها.

تابعت ليزا تقول: «على كل حال، لم يلائمني قط في الواقع، وهو يلائمك تماماً، خذي ضعي الجاكت فوقه.»

وألقت بها إلى تامسن التي ارتدتها طائعة، ثم تراجعت إلى الخلف تنظر مذهولة إلى صورتها في المرآة.

كان شيئاً لا يصدق، كانت تنورتها القديمة البنية اللون والكنزة المكومتين على الكرسي تمثلان لها تماماً اليرقة التي خرجت منها لتوها فراشة جميلة بديعة الألوان.

«تبدين انيقة، صدقيني.»

فاحمر وجه تامسن، ثم ابتسمت وهي تقول: «انه جميل جداً، يا ليزا، ولكنه كان غالي الثمن، ولهذا لا استطيع قبوله.»

«اسمعي، صدقيني إنني لا اسدي اليك أي فضل، فهو من طراز السنة الماضية.»

فكبحت تامسن ابتسامة صغيرة، وكانت صديقتها تتابع

كلامها قائلة: «فلا تتعالي، إذن، وإلا اعطيته لمادلين، رغم انها حصلت على ما يكفي من ملابسي حتى الآن.»

«حسناً...»

ثم اخذت تمر بيدها على قماش الجاكت الغالي الثمن والمنسدل، وإذ رأت صديقتها تنظر إليها، ابتسمت بخجل: «شكراً، يا ليزا.»

«بكل سرور، ثم الحق معك لا تخلعيه.» وابتسمت لتامسن مداعبة: «انني سأخرج بك لتناول الغداء...»

«آه، ولكن...»

«لا أريد «ولكن» هذه ان بإمكان زوجي توني احتمال ذلك، أو...» وغمزت بعينها بخبث. «بإمكان دفتر شيكاته احتماله، فأنا لا اقابلك كثيراً، ولهذا علينا ان نغزو المدينة، استعدي إذن بينما اتحدث قليلاً مع مادلين.»

فابتسمت تامسن بشيء من الارتباك، ولكنها لم تعد إلى الجدال. فليزا، كما يبدو مصممة على تدليلها، وهي في الحقيقة بحاجة حالياً إلى شيء من الدلال يسعدها.

وقفت تستمع، أولاً إلى وقع الخطوات التي كانت تهبط السلم، وبعد ذلك إلى الحديث العالي النبرة في المطبخ أسفل. ما أخلصها من صديقة! انها في الثانية والعشرين، تكبرها بأقل من عام، وهي أعز صديقة لديها، بعد سارا، منذ ايام الدراسة، وها هي ذي الآن، لديها زوج صالح، ولديه مصنع خاص به في المنطقة الصناعية من ضواحي المدينة، وبيت جميل وتوأمان رائعان في الشهر السادس من عمرهما.

وللحظة واحدة شعرت تامسن بطعنة، لم تتعودها، من

الحسد وهي تفكر في نوع حياتها هي، ولكنها ما لبثت ان نبذتها من ذهنها، ان حياتها على وشك ان تتغير... وإلى الأحسن. اما كيف بالضبط، فهي لم تكن واثقة في الحقيقة وهذا هو السبب في اتصالها هاتفياً بليزا لكي تأخذ منها موعداً تزورها فيه في بلايموت.

عصر أمس، بعد تلك النزهة العاصفة في الجو، اعادت الجرار إلى المزرعة، ثم اقفلت الباب على نفسها في بيتها، بعيدة عن ماتيو وبعيدة عن جوس. ثم أخذت تروح وتجيء في غرفة الاستقبال الشديدة البرودة والتي لا تستعملها أبداً، وهناك بين قطع الأثاث المغطاة بالملاءات لحفظها من الغبار، اخذت تحاول ان تواجه مستقبلها، بعينين يملأهما الذعر.

كان الشيء الوحيد الواضح امامها هو ان رفضها الفوري المذعور للمال الذي عرضه عليها زاك، كان صائباً، فهي اما ان تبقى كما هي الآن، وإما ان تقطع كل شيء تماماً، وبكل عنف، ولكن هنا في هذا المنزل الحبيب، وكل ذكرياتها فيه، كان من المستحيل عليها ان تصل إلى قرار، وهكذا شاعرة بأنها ستختنق إذا هي بقيت في هذه الغرفة اكثر من ذلك، ركضت إلى المطبخ لتتصل بليزا.

* * *

«وكذلك أحضر طبقين من السلطة، من فضلك.» وعندما كانت ليزا تعيد قائمة الطعام إلى النادل، اخذت تامسن تدير ناظريها تتأمل هندسة وزخارف المطعم والذي كان فخماً وجميلاً في نفس الوقت،

بحواجزه الشبكية المعرشة بالنباتات، مالت إلى الأمام ودعكت بأصابعها ورقة نبات خضراء وبيضاء اللون: «انظري، انها من البلاستيك.»

«آه، أحقاً؟ ولكن انها تقريباً أحسن من النبات الطبيعي، فهي لا... ان أوراقها لا تذبل.» وقضمت لقمة من الخبز وهي تقول: «يا ليته يسرع بالطعام... اشعر بالجوع.»

احست تامسن بالإرتياح، وكأن عبئاً ثقيلاً ينوء به كاهلها منذ زمن طويل، قد تزحزح قليلاً الآن، لم تكن اخبرت ليزا بالحقيقة كاملة... فقد خافت ان تشعر صديقتها، من النظر في عينيها، شيئاً من اعجابها بزاك... ولكن ليزا كانت واضحة جداً بالنسبة إلى ما على تامسن أن تفعل.

كان الحق معها، بطبيعة الحال، وقد استطاعت رؤية ذلك وهي بعيدة عن مزرعتها ويذرتور، كما كانت ترجو، فقد كانت المزرعة فوق طاقتها... والشيء العقلاني الوحيد هو ان تتخلى عنها، ولكن صوتاً همس في داخلها، ولكن ليس هذا هو سبب تركك المزرعة، أليس كذلك؟ انك راحلة لأنك تحبين زاك ترنشارد، هذا صحيح، وماذا في حبي له؟ هل لذلك أهمية؟ كلا، على الاطلاق. كانت تحدث نفسها بهذا غاضبة.

وإذا بها تسمع ليزا تقول: «إننا نحتفل الآن بحياتك الجديدة، يا تامسن، انني اتصورك الآن في تلك الشقة الرائعة التي...» وكانت قد أصرّت على أخذ تامسن لرؤيتها وذلك عندما كانتا في طريقهما إلى المطعم «تشرف على منظر للبحر في منتهى الجمال.»

أخذت تامسن تفكر في انها إذا هي وقفت أيضاً على اصابع قدميها امام نافذة الحمام، فسيكون بإمكانها ان

ترى زاوية المرعى في المزرعة، ولكن تامسن لم تلبث ان نبذت هذه الأفكار، فقد كانت ليزا من السرور والرضا، وذلك بشكل صبياني تقريباً، بحيث كانت تخطط لها حياتها لكي ترتاح هي وتبتهج بذلك.

لم تكونا الوحيدتين اللتين تحتفلان، فقد كان هناك اثنان في الركن المجاور لهما، وما أن نظرت تامسن الى زاك ويولاند حتى جمدت في مكانها.

كانا يجلسان متواجهين، ولهذا لم تر سوى جانبي وجهيهما، كان زاك يتفرس في قائمة الطعام، وبين حاجبيه ذلك التقطيب الذي تعرفه جيداً عند تركيزه على شيء ما.

اخذت تامسن تحدق لا تكاد تسمع ثرثرة ليزا، عندما التفت هو فجأة، وكأن تحديقها قد شعر به بشكل ما، وقبل ان تستطيع اخفاء وجهها خلف النباتات المعرشة، كان بصره قد وقع عليها، توقف برهة، ولكنه ما لبث رغم التقاء نظراتهما، ان تجاوزها ببصره، ولم تعرف هي ما إذا كان عليها أن تغضب أو ترتاح لذلك... ثم أعاد كل اهتمامه إلى يولاند.

أتراه كان يتجاهلها؟ كلا، فلم يكن في نظراته اليها ما يدل على انه عرفها، فإما ان يكون مستغرقاً في الحديث مع المرأة التي بصحبته، وإما وهذا هو الأسوأ، انها هي نفسها لم يعد يعرفها أحد في شكلها الجديد هذا.

اصبح لمذاق هذه الوجبة، طعم الرماد في فمها، لقد أخذت تامسن تمضغ وتبلع بطريقة آلية، وعندما قالت

ليزا: «الا تظنينها فكرة رائعة، يا تامسن.» أومأت بحماسة، وإذا بها تكتشف ان زوج ليزا يجري اتصالات مع معارفه في المدينة لكي يجد لها وظيفة، بشكل موقت في البداية، إلى أن تجد وقتاً تؤمن فيه نفسها بشكل دائم.

بدا ان الاثنين الآخرين كانا في معنويات عالية، وأدركت تامسن، والتي كانت كل خلية في كيانها مشدودة إلى تلك المائدة وشاغليها، انها لم تفهم شيئاً مما كانا يقولانه، إلى ان رفع زاك صوته قائلاً بوضوح: «اهلاً بمشاريع ترنشارد... ونجاحنا المستمر، واستقرار أمورنا.»

«هل أنت بخير، يا تامسن؟»

عادت إلى الواقع من أفكارها البعيدة، لتواجه نظرات ليزا القلقة.

ابتدأت بالقول: «انا...» ثم سكتت.

«هل الجو شديد الحرارة بالنسبة إليك؟ سأنادي من يفتح نافذة.»

«كلا.» قالت ذلك وهي تستقيم جالسة، يجب ان لا تنهض ليزا، ويجب ان لا تنتبه إليهما. «إنني بأتم خير، صدقيني فقط شعرت بشيء من التعب لحظة قصيرة، ولكنني بأتم خير الآن.»

«حسناً، ما دمت واثقة...» قالت ليزا ذلك مترددة، فاستطاعت تامسن بشكل ما، ان تبتسم لها تطمئنها.

كيف أمكنه ان يفعل هذا؟ اخذت هذه الفكرة تدور في

رأسها؟ ان يأخذ قبولها بالبيع أمراً مسلماً فيحتفل به قبل ان يسمع جوابها؟ لقد كان منحها ثلاثة أيام تفكر فيها في الأمر، ولكنه لم يزعج نفسه بانتظار جوابها، فقد كان من الثقة بقبولها، وبعدم جرأتها على الوقوف بينه وبين اوامره، كان من الثقة في ذلك بحيث أخذ الآن يحتفل بالنجاح... ومع يولاند بالذات...

ازدردت ريقها والشعور بالغيرة يمزق قلبها ويملأ كيانها... ورأت اصابعها ترتجف على ملعقة الحلوى، شاعرة برغبة هائلة في أن تقفز على يولاند وتمزقها إرباً إرباً.

أكلت طعامها حتى النهاية وذلك بشكل آلي ودون وعي منها، مجاهدة طوال الوقت، في التخلص من هذا الشعور المدمر بالغيرة والغضب الذي اجتاحها. واخذت تنظر إلى زاك بوجه متحجر، وهو يتناول القهوة بعد الإنتهاء من طعامه، ولكنها وهما يقفان ثم يسير مع يولاند إلى الباب، تمتمت في داخلها... شكراً، يا زاك... هذا ما يجب ان اقوم به.

* * *

كان فناء منزل زاك مقفراً، سارت تامسن بسيارتها في الطريق المرصوف بالحصى، ثم توقفت وهي ترى امامها سيارة زاك الرانج روفر، حسناً، لقد عاد على الأقل، لقد استطاع أخيراً، ان يتخلص من يولاند...

قالت للكلب الذي كان في المقعد الخلفي.

«إبق في الحراسة، يا جوس.» وبعد فهذه أرض عدو... ثم صعدت الدرجات العريضة إلى الباب المحاط بالأعمدة وقرعت الجرس، سمعت صوت وقع خطوات تقترب فتملكها الذعر على الفور، ولكن ضوت مديرة المنزل السيدة ميدوز بادرها قائلاً وهي تفتح الباب: «مرحباً يا تامسن.»

«مساء الخير، يا سيدة ميدوز، هل زاك... السيد ترنشارد موجود؟»

«أظن ذلك، يا عزيزتي، تفضلي بالدخول.»

وعندما دخلت تامسن اردفت السيدة ميدوز: «تفضلي بالجلوس، يا عزيزتي، وسأذهب للبحث عنه.»

وما ان غادرت مديرة المنزل المكان، حتى اخذت تامسن تنظر حولها في أنحاء الردهة، وقد اتسعت عيناها ذهولاً، فحسب ما كانت تتذكر، فالقصر هذا، وهو المحروم منذ سنوات من المال وذوق المرأة، كان قد اخذ في التدهور... لكنه الآن... واخذت تتأمل السجادة الصينية السميكة الكبيرة بلوينها الأزرق والبيج، والستائر الحريرية بألوانها المشمشية والبنية، والزخارف الخشبية باللونين الأبيض والمشمشي.

وازداد اتساع عينيها، لم يكن من الصعب عليها ان تتكهن من أين جاءت الأموال لكل هذا، ولأول مرة تدرك، كارهة، مقدار ما عليه ذلك الرجل، زاك من ثراء.

عادت السيدة ميدوز وهي تقول: «انه ليس في المنزل،

يا تامسن، ولا بد أنه في الاصطبل، هل آخذك إلى هناك؟»

«آه، كلا، شكراً، فأنا اتذكر الطريق.» وتملكها الارتباك، فقد حانت لحظة المواجهة مع زاك، نهضت وهي تقول: «سأذهب للبحث عنه.»

لكن الفناء المبلط كان خالياً باستثناء حصان زاك الأسود والذي كان ينظر اليها بإهتمام من فوق باب مربطه النصفي، وقفت مترددة، عند ذلك رأت ان الناحية البعيدة من الاصطبل والتي بقيت متداعية سنوات، أصبح لها نوافذ جديدة الآن، ومن خلالها بدا شعاع من ضوء، إذن، فهو هناك.

تقدمت من الباب، ومدت يدها إلى المطرقة، ولكن... كلا، ان قرعاً بسيطاً قبل الدخول، سيمنحه استعداداً نفسانياً، وهي تريد ان تباغته، وهكذا أدارت الباب ثم دخلت، مهما كان ما توقعت ان تراه، إلا انه لم يكن غرفة رياضية كاملة التجهيزات، لقد ذهبت المرابط والمزاود المتآكلة واصبح هناك جدران مبطنة بألواح خشب الصنوبر، وقد اسندت اليها مجموعة مخيفة كما بدت لها وكأنها أدوات تعذيب من العصور الوسطى، ولكنها أدركت انها أجهزة رياضية.

لم تر زاك في البداية، ولكنها ما لبثت ان سمعت حركة خفيفة في نهاية الغرفة، وإذا بها تراه، كان جالساً مسنداً ظهره إلى زاوية، ثم يندفع اماماً وخلفاً وقد وضع رجليه على حاجز معدني كان يتدلى من كل طرف منه حلقات حديدية ثقيلة الوزن.

طوال طريقها إلى هنا، كانت تتصور كيف ستفاجئه بحضورها، ولكنها الآن لم تستطع سوى الوقوف ناظرة

إليه، واضعة يدها على قلبها وقد توقف الزمن عن المسير.

كانت الحركات المنتظمة القوية لساقه ترغمه على إصدار شخرة صغيرة في كل مرة كان يدفعها فيها بعنف فتستقيم ساقاه لتصطدما بالحاجز حامل الاثقال، كان يعم الغرفة سكون تام باستثناء ذلك الصوت المنتظم الصادر من حنجرته، وخفقات قلبها البطيئة المتألمة.

وإذا به ودون ما سبب، الا إذا كان قد سمع خفقات قلبها تلك، إذا به ينظر من فوق كتفه.

«تامي؟ ما الذي تفعلينه هنا؟»

توقف فجأة، ثم انزل ساقيه من فوق الحاجز ونهض، ثم اختطف منشفة كانت ملقاة على كرسي، وتقدم نحوها وهو يمسح وجهه.

قال وهو ينظر اليها بفروغ صبر: «حسناً، ماذا تريدين؟ فأنا مازلت في منتصف التمارين، وإذا توقفت عن ذلك مدة طويلة، فستعود عضلاتي إلى الانكماش.»

«التمارين؟»

«نعم، فأنا اقوم بالتمارين بواسطة هذه الأجهزة يومياً، لقد سبق واخبرتك عنها من قبل. اظنك جئت لتخبريني بأنك صممت على الأمر، ولكنني منحتك ثلاثة ايام، ولم يكن بك حاجة الى القدوم قبل الغد.» وكانت نبرة الضيق قد عادت إلى صوته مرة أخرى.

فرفعت عينيها لتلتقيا بعينيه: «ولكنني لست بحاجة إلى ثلاثة ايام، يا زاك، وانت على صواب، فقد صممت على الأمر.»

«ولكن عودتك إلى عقلك استغرقت منك وقتاً طويلاً.» ثم

وضع المنشفة على الكرسي: «اتعلمين انك سيدة صغيرة عنيدة الرأس؟»

«نعم، انا هكذا، أليس كذلك، يا زاك؟» كان جزء منها مسرور بهذه اللحظة، انها ستلقي عليه درساً قاسياً بأن لا يأخذ قبولها أمراً مسلماً: «وهذا يعني، مع الأسف، ان جوابي هو كلا.»

الفصل الثامن

جمدت يدا زاك لحظة، ثم ما لبثت أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة، ثم قال بأسف صادق: «هذا مؤسف. فأنا اعتقد حقاً أن الوظيفة عندي ستلائمك تماماً.»

«إنني لا اتحدث عن عرضك عليّ لتلك الوظيفة.»

«آه...» وحدق بعينين قاسيتين كالفولاذ: «وما الذي تتحدثين عنه، إذن؟»

«ظننت الأمر واضحاً لك. أنا لا أريد وظيفة منك... لا أريد شيئاً على الاطلاق.»

علا التجهم وجهه، ولكن تامسن أرجعت رأسها إلى الخلف تبادله نظرة بنظرة، ثم قالت بتمهل زائد:

«إنني... لن... أبيع... مزرعة ويذرتور... لك.»

«يا لك من مترددة.»

وعندما تقبضت يدا زاك بجانبيه، تراجعت هي خطوة إلى الوراء ما سبّب لها اصطداماً مؤلماً بعجلة للتمرين. وكان هو قاطعاً عليها الطريق إلى الباب، فنظرت حولها بعنف ولكن لم يكن هنا أحد عداهما... لا أحد يقف بينها وبين غضبه الثائر. فقد كانت من الغضب والغيرة بحيث نسيت ما ستكون عليه ردة فعله. وتملك قلبها الخوف.

www.elromancia.com

«أي أفكار دخلت إلى رأسك؟ لقد كنت منذ يومين فقط على أتم الاستعداد للبيع.»

«نعم... حسناً، كان ذلك منذ يومين.» قالت ذلك وقد تملكها الاحتقار لنفسها للهجة الدفاع في صوتها.

«هل لك أن تخبريني بالسبب، من فضلك؟»

فتمتمت تقول: «ليس ثمة سبب، وأنت لن تفهمه على كل حال.»

«وهل هذه كلمتك الأخيرة؟»

«نعم.»

«وماذا ستفعلين بالنسبة إلى المال؟»

أجفلت للسخرية الواضحة في صوته، ولكنها رفعت رأسها متحدية، وقالت: «لا تقلق عليّ... سأتدبر أمري.»

«لو كنت مكانك لما كنت واثقاً من ذلك، يا تامسن.» قال ذلك عابساً، وبينما كانت تحاول أن تفهم ما إذا كان قوله هذا يتضمن تهديداً لها أم لا، تابع يقول: «أظنك تنوين السير في خطتك غير الناضجة لإقامة مخيّم وغرس غابات صنوبر؟»

كان يعلم أنه قد خسر المعركة ما جعله ينحط إلى مستوى الإهانة.

فقالت متحدية: «نعم، سأقوم بذلك في أقرب وقت ممكن.»

«في هذه الحالة عليّ أن أخبرك بأنني سأعرقل أعمالك على طول الخط.»

«على أي أساس؟»

«الناحية التي ستقيمين فيها المخيم مثلاً فكري في

ازدياد حركة السير التي سيسببها ذلك، وأنت تعرفين حالة الطرق حول القرية. إنها بحاجة إلى التوسيع لكي تستوعب عربات الإقامة التي سيأتي بها الزبائن كما هو المتوقع في النواحي العصرية.»

«حسناً، وماذا بالنسبة إلى خطتك أنت عن دبابات الجيش القديمة والتي ستندفع بسرعة في انحاء الناحية الريفية؟»

«ليس ثمة أي مشكلة، فهي ستكون داخل حدود المطار القديم، وطرق تلك الناحية هي من الاتساع بحيث تستوعبها بسهولة. وإذا لم يكن ذلك، فسأنقلهم إلى الداخل بالبالون.»

قالت بعناد وقد كرهت منه هذه الثقة البالغة بنفسه: «سنرى. إن مشاريعي ستلقى قبولاً حسناً كمشاريعك على الأقل.»

«لو كنت مكانك لما تملكتني هذه الثقة.» وألقى نظرة متأملة، ثم سألها: «كم يبلغ عدد اصدقائك في لجنة التخطيط؟»

«لماذا؟ لا أحد طبعاً. آه...» وأقفلت فمها بعد إذ أدركت ما يتضمنه كلامه من معنى.

«بالضبط، وها أنت ذي تعرفين لماذا سينجح مشروعي، ويمكنني أن أقول بشيء من القناعة ان مشروعك لن ينجح.»

كل الثقة، والتي لم تكن كاملة على كل حال، قد تضاءلت إزاء هجوم زاك هذا، لتصبح كتلة صغيرة منكمشة من التعاسة في صدرها. ولكن يجب ألا تجعله يرى ذلك. وابتدأت تستدير لتخرج.

لكن صوته أوقفها في طريقها وهو يقول:« ولكنني لم أكمل حديثي بعد، يا تامي.»

فقالت من دون أن تستطيع مواجهة نظراته: «ولكن... ما... ماذا تريد؟»

«سمعت أن لديك مشكلة في سداد قائمة الاغذية.»

فاحمر وجهها غضباً لهذا الاذلال، وقالت من دون وعي: «وكيف... كيف عرفت بذلك؟ هل كنت تتجسس على شؤوني؟»

«آه، ليس هذا هو الأمر. المسألة هي أن برت فالوس، هذا، إذا كنت نسيت، وهو المموّن لك ما زال أحد المستأجرين عندنا. وأي شيء يؤثر عليه مالياً... من زبون لا يستطيع الدفع مثلاً... فهو يهمني جداً.»

إذن، فهذا هو السبب في أن برت العديم الاخلاق، أخذ يضغط عليها مؤخراً. فهذا... هذا الرجل القاسي يسنده.

أحنت كتفيها واستدارت مرة أخرى مبتعدة، ولكن صوته البارد لاحقها دون شفقة بكلمات كقطع الثلج: «وعندما تعودين إلي زاحفة، متوسلة إلي أن اشتري المزرعة، فسيكون العرض الذي كنت قدمته إليك منذ يومين قد انتهى. وسأعطيك سعر السوق حالياً... هذا إذا كنت محظوظة، دون زيادة قرش واحد.»

كانت سيطرتها على نفسها قد وصلت إلى منتهاها، فاستدارت بعنف ورفعت يديها إلى وجهه لتمزق ابتسامته المتغطرسة تلك.

ويبدو أنه كان قد ظن أنه سحقها بقدميه حتى لم يعد أمامها سوى الزحف مبتعدة كحيوان جريح، ما جعل

هجومها المفاجيء يخرجه عن توازنه... فتراجع مستنداً إلى الجدار. لكنها تابعت مسددة إلى كاحله رفسة حاقدة.

«كفى، يا تامي، أيتها المعتوهة.»

كان يضحك عليها الآن بصراحة، فكان في هذه الضحكة، وإفساده عليها هجومها، ما زاد في غضبها كل مقاومتها.

سددت إليه رفسة أخرى، فأصابه مقدم حذائها تحت ركبته، فأجفل هذه المرة وأخذ يشتم.

«كفى، يا قاذفة اللهب، وإلا أريتك ما سأفعله بك.» ولكنه كان ما يزال يضحك.

« حسناً، اظن ان خطتكما انت وهي لم تنجح.»

« اي خطة؟ ما هذا الذي تتكلمين عنه؟»

اخفضت نظرها وهي ترى ملامحه تعود إلى جمودها، ولكن الوقت كان قد فات الآن لسحب كلامها، فأجابت: «أنت ويولاند.. هذا ما كنت اعنيه.»

«أنا ويولاند؟» وأخذ يحدق بتبلد: «لقد خرجت عن عقلك الصغير، كما أرى.»

«لقد كنت هناك... في المطعم. وقد رأيتكما.»

نظر ذاهلاً: «آه، إذن فقد كانت تلك المرأة أنت، لقد فكرت فعلاً بأن في تلك الفتاة التي رأيتها شيئاً مألوفاً...»

«كيف تجروء؟» وأخذ تنفسها يزداد وقد ثارت كرامتها وهي تقول:«إنني سأذهب الآن وأدعك تفضي إليها بالخبر المحزن.»

«ماذا تعنين بهذا؟»

«أعني فقط أن حفلتكما الصغيرة قد أجهضت. لقد كنت

واثقاً من نفسك، أليس كذلك؟... واثقاً تماماً من أنك أزحتني أخيراً.»

«والآن، اسمعي.» كان واضحاً أنه قد عاد يسيطر على نفسه. «مع أن كل هذا لا شأن لك به، ولكن كل ما رأيته، أو ما ظننت أنك رأيته، كان كله خطأ. نعم، كنا نحتفل... ولكن ليس للسبب الذي خطر في بال فتاة عنيدة الرأس و...» وأمسك عن التلفظ بالكلمة الأخيرة، وتابع يقول: «لقد وافقت يولاند على استثمار مبلغ لا يستهان به في مشاريع ترنشارد وكنا قادمين لتونا من مكتب المحامي حيث وقعنا العقد.»

فقالت وقد شعرت بنفسها تنكمش: «آه.»

«إن يولاند هي سيدة أعمال غاية في الفطنة.» وكان معنى قوله هذا إنها يولاند ليست كبعض الناس البعيدين مليون ميل عن تلك الصفات. «فهي بإمكانها أن تحصل على المردود الممتاز من مشروع ما، مع أو بدون مساعدة من أحد.» رمقها بنظرة كريهة، وتابع يقول: «ولكن هذا كل شيء... مجرد علاقة عمل بعد زواج سيء وطلاق اسوأ...»

نظرت إليه تامسن بارتباك. لقد فعلها مرة أخرى وذلك بسحب البساط من تحت قدميها، فإذا هي سمحت لنفسها بإظهار الضعف أكثر من ذلك، فسينتهز هذه الفرصة ويواصل الضغط عليها إلى أن يهزمها تماماً.

فقالت: «حسناً، على كل حال، فهذا ليس سبباً يجعلك تظن أن بإمكانك أن... تعاملني بالقوة... ولكن، هذا كان المرحلة الثالثة التي استعملتها معي لتمهيد طريقك نحو غايتك، أليس كذلك؟ المرحلة الأولى هي مساعدتي في توليد

النعجات، المرحلة الثانية هي أخذي معك في بالونك... وهذه معاملة تدير رأس طفلة بسيطة مثلي.»

حاول مقاطعتها، ولكنها تابعت تقول بسرعة: «والآن، هذه هي المرحلة الثالثة...»

التقطت نفساً طويلاً مرتجفاً: «وعلى كل حال، فقد عرفتك طوال حياتي، ونحن الاثنان نعلم كم أنت أناني.»

مضت لحظة شحنت هذه الكلمات الجو بينهما بالخطر. ولكنه ما لبث أن قال بازدراء: «ظني بي ما تشائين. فقد ضيعت من الوقت عليك هذا المساء أكثر من الكفاية. فاخرجي بنفسك من هنا...»

واختطف المنشفة ثم ادار لها ظهره مبتعداً وانصفق الباب في نهاية الغرفة خلفه. وبينما وقفت تامسن جامدة في مكانها، ثم خرجت ببطء.

الفصل التاسع

وضعت تامسن آخر كمية البسكوت التي صنعتها بنفسها في الطبق وكذلك وضعت طبق الخبز المكور والشطائر والخبز المحمص مع الزبدة. كل شيء كان جاهزاً رغم أن الطلاب لن ينتهوا من لعبتهم الحربية قبل ساعتين على الأقل. فكان ثمة وقت أمامها يمكنها فيه أن تجلس قليلاً، ولكن هذا يعني أيضاً أن ثمة وقتاً أمامها للتفكير... وكان هذا شيئاً حاولت جاهدة أن تتجنبه أثناء اليومين الأخيرين.

ربما بإمكانها أن تنقل المنضدة الخشبية القديمة إلى حديقة الأزهار، فقد كان النهار أجمل من أن يضيعه ضيوفها بالجلوس في الداخل، هذا إلى أن هذا المكان لا يكاد يسعهم، وهم أربعون شخصاً، والذين يمثلون أكبر مجموعة جاءت إليها حتى الآن. كما أنهم كانوا راضين تماماً بدفع مبلغ الثمانين جنيهاً التي طلبتها منهم بشيء من التردد. كان هذا لا يعادل المستوى الذي يطلبه زاك، بطبيعة الحال... وهي تتصوره الآن لاوياً شفتيه بسخرية... ولكن لعبة الحرب هذه قد ابتدأت تصبح حقاً، بالنسبة إليها، البقعة المضيئة في المنظر الأسود.

ولكن ما أن فتحت باب المطبخ، حتى جمدت مكانها مذهولة. كان الفتية عائدين عبر الفناء، يجرون اقدامهم بأسى. وعندما أخذت تنظر إليهم أخذ سيمون، وهو طالب سنة ثالثة هندسة، كما أنه المسؤول عن تنظيم هذه الرحلة،

أخذ يقطع بحربة بندقيته مجموعة من نبات القراص وقد تملكه الغيظ.

ما لبثت تامسن أن هرعت إليهم تسألهم: «ما الذي حدث؟ هل... هل أصيب أحد منكم؟»

أشار سيمون بإبهامه باتجاه طالب آخر: «اسألي ذلك الحشرة برايان يا ليتنا لم نحضره معنا.» ثم انهار جالساً على رصيف حجري.

نظرت تامسن إلى برايان الذي كان يسير وحده ثم إلى وجوه الفتية الآخرين المكتئبة، ثم قالت تخاطبه: «إنني آسفة جداً إذا كان هناك ما أفسد عليكم نهاركم.»

«إنك سرعان ما ستصبحين أكثر أسفاً، يا تامسن.» وبان على وجهه الأسى. «إنني أعرف ان الالعاب الحربية هذه هي مهمة بالنسبة إليك، كما أن...»

وتلاشى صوته، فنظرت إليه تامسن، ثم سارت نحو الفتى الآخر تسأله: «ماذا حدث، يا برايان؟»

«آه، يا تامسن. إن لديّ خبراً رائعاً لك.» وابتسم بحرارة من وراء نظارتيه وقد بدا غير منتبه إلى الزمجرات التي قابل بها الفتيان كلماته هذه: «هل تعلمين أن في ارضك يوجد مجموعة مزدهرة من أزهار «سبيرانتس استيفاليس؟»

«ماذا؟» وأخذت تحدق إليه دون أن تفهم: «ما هذا الذي تتحدث عنه.»

«سبيرانتس استيفاليس.» قال ذلك بصبر الذي يتعامل مع الحمقى: «اسمعي. تعالي معنا وسأريها لك إنها تنبت على طول ضفاف الجدول.»

«آه، أتعني تلك الزنابق البيضاء الصغيرة؟ طالما تساءلت عما عسى أن تكون هذه الازهار... يا له من اسم جميل...»

«طبعاً، كان علي أن أوقف اللعب، كما تعلمين.»

فقالت شاعرة باضطراب مبهم يزحف في كيانها: «توقف اللعب؟»

«آه، نعم. فنحن لا نستطيع المجازفة بتعريضها للأذى بأي شكل كان.»

«ولكنها ليست من نوع غير عادي... فهناك زنابق أجمل كثيراً في ذلك المرعى هناك. إنها أزهار جميلة بنفسجية اللون تقريباً...»

قال برايان بتهكم: «أتعنين دكتيلوريزا بريتيرميا؟ آه، تلك الأزهار سبيرانتس هي مختلفة تماماً. ذلك أن الناس يظنون انها انقرضت منذ سنوات ولكن ها هي ذي تنبت عندك... وربما هي آخر الموجود منها في انكلترا.»

فقالت باهتمام: «هذا رائع حقاً ولكنني ما زلت لا أفهم.»

«علينا طبعاً أن نزيل كل المعدات من مكان اللعبة ثم نبلغ لجنة صيانة الطبيعة ومن ثم نضع اليد عليها بصفتها مكان يحتوي على اهتمامات علمية خاصة وعليّ أن ابلغك بأنني قد وضعت ترتيباً تمهيدياً بالنسبة إلى غابة لسكومب لاتخاذ فعاليات فورية.»

قال سيمون وهو يراها تقف صامتة لا تدري ما تقول: «هذا يعني، يا تامسن، ان على العابك الحربية أن تتوقف حالياً.»

«ولكن... ولكن هذا مستحيل.»

وأخذت تنقل نظراتها بينهما، شاعرة بالدوار والبرودة. توقف الالعاب الحربية؟ ولكن ذلك الدخل المنتظم على الاخص هو الذي كان يجعلها تحتمل النظر إلى كيس نقودها... وبدونه... وازدردت ريقها.

«لا أريد أن أجرحك، يا برايان ولكن أليس من الممكن أن تكون مخطئاً؟»

«آه، كلا.» هز رأسه وهو يخرج كتاباً صغيراً من جيبه: «لقد تأكدت من ذلك في هذا الكتاب وأؤكد لك أن ليس ثمة خطأ.»

«حسناً، في هذه الحالة، ادخلوا وكلوا شيئاً. وطبعاً، لا أريدكم ان تدفعوا شيئاً لهذا اليوم. كلا.» وعندما حاولوا الاحتجاج، قالت: «وبعد فقد دفعتم ايجار الحافلة دون فائدة.»

وعندما دخلت تصنع الشاي، كانت تفكر في أن هذه قد تكون لفتة حسنة تماماً منها، ولكنها عادة تكلف مالاً...

* * *

«خذ، يا جوس.»

وعندما أخذ الكلب الفطيرة من يدها برشاقة ووضعها أرضاً، تنهدت هي. لقد كان معظم الطلاب من الأسى، لأجلها وليس لأجل أنفسهم... بحيث لم يأكلوا كثيراً وهكذا بعد رحيلهم، ملأت ثلاجتها بكل أنواع الفطائر والشطائر والجبن والخبز.

وإذ كانت من الحزن والأسى بحيث لم تستطع البقاء في

البيت صفرت لجوس، ثم سارت نحو المروج مغيرة اتجاهها كلما رأت مجموعة من المتنزهين في العطلة الاسبوعية هذه. ذهبت أولاً إلى الغابة حيث وقفت عدة دقائق تحدق في تلك الأزهار الصغيرة الشاحبة التافهة الشكل. لو أنها فقط احضرت معها المعول لاقتلاعها، ربما كان بإمكانها بعد ذلك أن تقنع ذلك التعس برايان بأنه كان يحلم...

لكنها لم تلبث أن ابعدت من ذهنها هذه الافكار عديمة الفائدة، ثم غادرت الغابة إلى حيث أخذت تجول في المروج إلى أن وصلت إلى حيث أدركت أن عقلها الباطن أحضرها إلى هنا... ألا وهو الوادي السري.

لم تكن حضرت إلى هذا المكان منذ سنوات، منذ موت سارا.

لكن رغم أن سارا ماتت، وتغيرت هي وزاك إلا أن لا شيء تغير هنا. سارت بمحاذاة النهر من البحيرة الصخرية حتى شجرة العليق والتي ما زالت تتدلى فوق حافة الشلال ثم انحدرت بمحاذاتها لكي تجلس تحت الصخرة التي كانت تحميها من مهب الريح، وهي ترتجف قليلاً تحت رذاذ المطر الذي ابتدأ يهطل بعد ذلك الصباح الجميل.

كانت أفكارها في البداية منحصرة في هدير الشلال المتساقط في البحيرة العميقة هذه، ولكن شيئاً فشيئاً، أخذت افكارها تتشعب. كيف بإمكانها أن تعيش الآن بعد أن خسرت ما كانت تدره عليها لعبة الحرب تلك؟ ليس أمامها إلا استجداء الحقير زاك. إن خسارته للغابة طبعاً ستكون ضربة قوية لمشاريعه، ولكن معرفتها الجيدة به كانت

تخبرها بأن ذلك لن يعيقه عن أخذ كل أملاكها. فهو بالغ العزيمة في تنفيذ ما يريد...

ولكن كلا. إنها لن تستسلم. فقد أعطته جوابها الآن، وكرامتها تأبى عليها تغيير رأيها. ومنذ أيام قليلة فقط، كانت تظن أنها لن تحتمل العيش في مزرعة ويذرتور هذه بينما هي تفكر في زاك.

أخذت أفكارها تدور وتدور كالنحلة الطنانة، إلى أن انتبهت إلى أن الكلب غير موجود بجانبها.

نهضت واقفة تناديه وهي ترفع ياقتها حول عنقها تصد بذلك رذاذ المطر: «جوس، جوس أين أنت؟» ثم أخذت تصفر له، وإذا بها تسمع نباحاً خافتاً من أسفل جدول المياه.

أسفل الشلال، كان الوادي يزداد عمقاً بشكل مفاجيء عند المضيق ومن ثم يستحيل الجدول الجميل الضحل إلى سيل جارف حيث يرغم على النفاذ من ذلك المضيق الصخري. وكان هذا مكاناً مخيفاً، مظلماً مشرفاً... لاتذكر منذ بداية وعيها، شيئاً أكثر خطورة منه. فقد كان دوماً يملأها رعباً والآن وهي تتعثر في سيرها عادت إليها مشاعر الخوف الطفولي تلك.

عند أضيق الأماكن، حيث كان اتساع النهر لا يتعدى الخمسة اقدام، كان الجانب الآخر له مختفياً تقريباً تحت جدار صخري. وكان هناك افريز ضيق فقط أكثر انخفاضا من الضفة حيث كانت هي تقف... ما يجعل القفز سهل من ناحيتها، ولكنها قفزة من الأعلى فوق دوامة من المياه الخضراء يبلغ عمقها عشرة امتار. وكان الناس يسمون هذا المكان (خطورة الرجل الميت) لسبب وجيه.. ورأت تامسن

الآن أن جوس كان في الناحية الأخرى المنخفضة تلك وهو يركض رواحاً ومجيئاً على ذلك الإفريز الضيق.

وعندما رآها، وقف وكأنه يريد أن يقفز. وسمعت هي نفسها تصرخ: «كلا، يا جوس، انتظر.» كان صوتها عالياً حاداً فوق المياه الهادرة، ثم وقبل أن تسمح للخوف بأن يشلها عن الحركة تماماً، قفزت إليه.

شعرت بالألم ويدها اليسرى تحتك بالصخرة، ولكنها مع ذلك جثمت بجانب جوس، وأخذت تجره بعيداً عن رشاش الماء. أخذت عيناها تقيسان الهوة... كان اتساعها أقل من اتساع شرفة بيتها أمام الباب، ولكن مع ذلك...

قالت تطمئن الكلب ونفسها في ذات الوقت: «لا بأس، لا بد أن يأتي شخص ما.» ولكن هذه البقعة كانت مهجورة نائية في الأوقات الحسنة فكيف بها والأمطار تهطل؟ ماذا لو لم يحضر أحد هذه الليلة؟ ماذا لو لم يحضر أحد قبل الغد؟ ماذا لو لم يحضر أحد قبل فوات الأوان؟ يجب أن لا أدع الرعب يتملكني... همست بذلك لنفسها وهي تبتلع غصة شعرت بها تستقر في صدرها مهددة بأن تستحيل إلى نوبة هستيرية من الرعب.

وحاولت أن لا تنظر إلى الماء الجاري تحتها واثقة من أن استمرار المطر، سيرفع من منسوب المياه دقيقة بعد أخرى نحو حافة الصخرة. ولكي تصرف ذهنها عن التفكير في هذا المد الزاحف، نظرت إلى ساعتها. إنها السابعة... سرعان ما سيرخي الظلام سدوله من دون أن يأتي أحد. واغرورقت عيناها بدموع حارة.

قالت بصوت مرتفع: «لا بد أن يأتي أحد إلينا.» وإلى ذلك

الحين، ستمضي الوقت تحسب مروره ستون ثانية تؤلف دقيقة، وستون دقيقة تؤلف ساعة... واستطاعت أن تركز أفكارها على ساعتها مرة أخرى. كادت تبكي خيبة وعجزاً وهي ترى أن الساعة هي الآن السابعة وعشر دقائق.

كانت أصابع احدى قدميها اكثر برودة من الأخرى وعندما حركتها وجدتها مبتلة. رفعت رأسها من حيث كانت تريحه على الصخرة، وإذا بها ترى أن المد الزاحف، وقد بدا على اطرافه الزبد الآن، قد انتشر على حافة الصخرة ووصلت إلى طرف حذائها ذاك. حدقت إليه لحظة بعينين متبلدتين ثم سحبت قدميها وهي ترتجف ذعراً.

عند حركتها هذه احتكت يدها بجيب سترتها الواسعة فشعرت بشيء قاسي اخرجته فإذا به آخر فطيرة من تلك التي كانت صنعتها لأولئك الفتية. بدا وكأنه مضى على صنعها مائة سنة وعندما أخذ جوس يتشممها، اعطته نصفها وأخذت تأكل النصف الآخر وعندما وجدتها بمذاق الرماد في فمها، أعطته بقية حصتها. أكلها هو، ثم أخذ يئن ويتململ بقلق.

قالت له بصوت صبياني مرتفع: «لابأس، يا فتى، فنحن سنذهب إلى البيت قريباً.»

كان لخرير الماء فعلاً منوماً على ذهنها ما جعلها دائخة متشوقة إلى النوم. ولكن كان عليها أن تبقى مستيقظة. وأخذت تعد الحصوات التي كانت عند قدميها... واحد، اثنان... ثلاثة... أربعة... وجرفت دفعة ماء أبعد الحصوات، فدارت ودارت في الدوامة ثم بعد ذلك رأتها، وقد تملكها الذعر، تغوص إلى أعماق النهر.

أخذت تعد أشجار العليق على الضفة المقابلة، وذلك من خلال المطر المنهمر. واحدة... اثنتان...

«تامي...»

«... ثلاثة... أربعة...»

«تامي، أين أنت؟»

قطبت جبينها وهزت رأسها بخفة وكأن هذا الصوت الملحاح قد جعلها تخطىء في العد. ولكن... آه، هل هذا ممكن؟

«زاك!»

زحفت ثم نهضت بسرعة، ولكن إذ كادت تفقد توازنها، عادت فهبطت على الأرض جالسة لا بد أنها تتخيل ذلك. وأغمضت عينيها بقوة ثم عادت ففتحتهما وإذا بها ترى من خلال المطر والغسق، شخصاً آتياً في الطريق على حصان أسود.

وعندما رآها، شد لجام الحصان بعنف، ثم تأرجح هابطاً من على السرج وثبت اللجام في غصن شجرة ثم بدأ يسير على الضفة.

«زاك.»

«ابقي حيث أنت.» جاءها صوته من خلال هدير المياه ونباح جوس المبتهج. وعندما تحركت محاولة السير، عاد يصيح بها: «كلا، ابقي حيث أنت.»

ثم نزل إلى آخر الضفة، قبالتها. وكان يعرج كانت قد نسيت عرجه. فهو عليه أن لا يقفز... يجب عليه أن لا يقوم بذلك على الاطلاق وإلا فسيأخذه النهر...

صرخت قائلة: «كلا، إياك.» ولكنه لم يسمعها، وقبل أن

تحاول الصراخ مرة أخرى، كان قد قفز من فوق الهوة العميقة. وعندما استقر على الأرض بجانبها بالضبط، رأته يجفل من الألم وفي اللحظة التالية كان يجلس بجانبها.

« تامي، هل أنت بخير.» ولكنها ما زالت لا تسمعه جيداً بسبب خرير الشلال.

فابتدأت تقول: «أنا...» ولكن الصدمة التي تملكتها كانت أكثر مما تستطيع احتماله فرفعت يدها إلى وجهها وانفجرت باكية ليس بهدوء وإنما بصوت عال صاخب كطفلة صغيرة.

«آه، يا تامي... لا تبكي.»

أخذ يهدهدها بصوته وكأنها حقاً طفلة إلى أن توقفت دموعها أخيراً، فسألها: «أحسن الآن؟» وعندما اومأت بالإيجاب، نهض من مكانه ورأته ينظر إلى أسفل عابساً، وعندما تابعت نظراته، إذا بها ترى المد قد وصل الآن إلى فردة حذاء الركوب الذي يرتديه. ولكنه ضحك يطمئنها: «لا أظن المكان صحياً تماماً هنا. فدعينا نذهب إذن، أليس كذلك؟»

لم تكن تريد أن تقفز. كانت سترفض ذلك ولكنها لم تستطع أن تدع زاك يرى أية جبانة تعسة هي. وهكذا كبحت ذعرها ثم أرغمت نفسها على مواجهة الماء.

«كلا، من هذا الطريق.»

صاح بذلك ثم سار امامها على طول الضفة إلى أضيق نقطة فيها، ثم التفت إليها.

أمرها قائلاً: «والآن اصعدي من هنا.» ولكنها عندما

تبعت اتجاه اصبعه ورأت شقاً عمودياً على الصخرة التي تعلوهما تراجعت بهلع: «كلا... كلا، لا استطيع.»

لكنه قال مصمماً: «بل عليك أن تقومي بذلك وسأكون خلفك فيما لو انزلقت.» إذن فسيقعان هما الاثنين، في النهر.

«ولكن جوس... لا أريد ان اتركه هنا.»

«بل ستفعلين ذلك.» كان الغضب يتملكه، وغضب زاك كان فوق احتمالها. وكان هو يتابع قائلاً: «على كل حال، أينما تذهبين فهو سيتبعك. والآن... تحركي.»

لن تنسى تامسن قط في حياتها هذا التسلق. كان لا يكاد يبلغ علوه الأربعين قدم، ولكنه كان عمودياً والشق من الضيق بحيث استطاعت أن تحشر نفسها فيه ببالغ الصعوبة محاولة ان تتمسك باصابعها بمجموعة من العشب الغليظ كان نامياً من الصخرة. عدة مرات كانت تتلمس بأصابع قدميها، مكاناً ثابتاً وفي كل مرة وبشكل ما، كانت يدا زاك تجد ثغرة في الصخرة يتمسكان بها.

حاولت مرة أن تلتفت ولكنه صاح بها:

«كلا، لا تنظري حولك!»

وهكذا كانت ترفع نفسها لتعبر فوق العوائق النهائية لتسقط اخيراً إلى الأمام على وجهها على الجذور المتشابكة لشجيرات قصيرة متكاثفة.

رمت نفسها على الاعشاب المبتلة وأنفاسها تتسارع في أذنيها وما لبثت أن شعرت بزاك ينهار بجانبها ثم جوس ايضاً.

وشيئاً فشيئاً، انتظمت انفاسهما، وتحول زاك نحوها يواجهها.

سألها برقة: «هل أنت بخير الآن؟»

لم يكن لديها القوة لتومىء بالايجاب، فهمهمت تقول: «شكراً، يا زاك... لانقاذك حياتي. لو كنت بقيت هناك طوال الليل...» وارتجف صوتها وهي تفكر في ما كان سيحدث لها.

فقال بصوت خشن: «تامي لا تبدي بهذا الشكل.»

«أخبريني كيف اوقعت نفسك في ذلك المأزق، على كل حال؟ لقد كنت نهيتك مئات المرات عن الذهاب إلى ذلك المكان.»

أخذت تفكر في أن ذلك كان منذ سنوات كثيرة، حين كان يلقي بأوامره إليها وكأنه شقيقها...

لكنها أجابته قائلة: «حسناً، لقد عبر جوس الضفة، ثم...»

«كان عليّ أن ادرك أن الأمر يتعلق به وطبعاً، كان عليك أن تلحقي به.» وهز رأسه ساخطاً: «يا لهذا التصرف الغبي الأحمق.»

«لم يكن بوسعي أن اتركه هناك، أليس كذلك؟» لقد كادت اعصابها، والمضطربة أصلاً، أن تتحطم تحت وطئة هذا الهجوم. «وعلى كل حال، لا بد أنك كنت هناك من قبل حتى رأيت طريق الخروج ذاك.»

«نعم، حسناً، ذلك شيء مختلف.»

«لا أرى سبباً يجعله مختلفاً... وأظنك ستقول عني الآن أن الوقت قد حان لكي أكبر، وأنني ما زلت طفلة غبية.»

«آه، كلا يا تامي، لن اقول لك ذلك أبداً بعد الآن.»

كان في صوته نبرة حزن... أو لعله ندم، ولكنه عاد فقال بحيوية: «هيا بنا، لقد حان الوقت للتحرك...»

تابع حين نهضت بدورها: «إننا بحاجة إلى العودة إلى حيث يتسع النهر حيث يمكننا عبروه على الحجارة الموضوعة للسير عليها وذلك إلى حيث نحضر ساتان والذي هو حصاني.»

وعندما عبرا النهر انتظرت تامسن مع جوس تحت شجرة بينما ذهب زاك ليحضر الحصان. أخذت تنظر إليه عائداً نحوها متمهلاً ممتطياً حصانه وكانت في الوقت نفسه شاردة الذهن.

وايقظها صوته، فجأة قائلاً بلهجة لاذعة: «أتريدين أن تبقي هنا طوال الليل؟»

قالت له: «يا لها... يا لها من مصادفة، أعني حضورك إلى هذا المكان.»

فأجاب: «ليس ثمة مصادفة فقد كنت عدت لتوي من قسم التدريب مع رجالي، عندما اتصل بي ماتيو هاتفياً. كان قلقاً للغاية... لقد كان يعرف أنك في مكان ما في المروج، وسألني عما إذا كنت رأيتك.»

«ولكن عثورك علي ما زال يدخل في باب الحظ.»

«ليس تماماً. فقد داخلني شعور بأنك ذهبت إلى (الوادي السري) وهكذا سرت بمحاذاة النهر إلى أن وجدتك.»

ثم تابع بلهجة لاذعة: «لا تقلقي، فأنا لن أطلب منك تعويضاً.»

سألته بعجب: «ماذا؟ تطلب تعويضاً؟»

«نعم، حياتك، وحياة جوس طبعاً، بديلاً للمزرعة وهكذا، لا حاجة بك إلى الجلوس هناك متوترة تترقبين.»

حسناً، إنه على الأقل، أساء فهم سبب ردة فعلها تلك.

www.elromancia.com

الفصل العاشر

كان الظلام قد أرخى سدوله باستثناء ضوء كان قادماً من...

واتسعت عيناها: «لماذا احضرتني إلى هنا؟»

فقال بخشونة: «اظنك تفضلين العودة إلى بيت قروي مظلم بارد موحش، أليس كذلك؟ حسناً، انني آسف لأن اخبرك بأنك ما عانيته لم يترك تأثيراً سيئاً، على صحتك وان كان السبب الذي يجعلني أزعج نفسي لأجلك هو شيء لا أفهمه.»

لكنه في النهاية، اقنعها بالرغم عنها لتصعد إلى داخل المنزل الدافىء حيث جلست على نفس المقعد في الردهة والذي كانت جلست عليه مساء أمس قبل ان تعثر عليه في الاصطبل.

«ماذا تامسن؟ ما الذي جرى؟»

قالت مديرة المنزل هذا وهي تخرج من المطبخ ثم تحدق فيها باستغراب.

فقال زاك وهو يبتسم مطمئناً: «انها بخير، يا سيدة ميدوز.» ثم اضاف بحزم: «يمكنك ان تأخذي الكلب جوس إلى المطبخ وتضعيه بجانب المدفأة، ثم تحضري شراباً دافئاً... وشيئاً يؤكل.»

بعد ان ألقت المرأة نظرة متشككة على الفتاة، والتي كانت ما تزال محنية الكتفين والرأس، خرجت وهي تجر

جوس معها، بينما عاد زاك يلتفت إلى تامسن، قائلاً: «سأتصل انا هاتفياً بماتيو واخبره بأنني عثرت على الولد التائه.»

رقت أساريره وهو ينظر اليها ولكن للحظة واحدة تلاشت بعدها هذه الرقة: «سأخرج لأدعك جسم الحصان.»

* * *

كانت مديرة المنزل في انتظارها في الردهة: «آه، هذا حسن، يا تامسن، فقد احضرت إليّ ثيابك الوسخة.» ومدت يديها: «اعطينيها، فقد قال لي السيد ترنشارد ان اغسلها واكويها لك.»

«آه، لا حاجة بك لذلك، شكراً.» وتشبثت تامسن بالثياب بحزم.

«حسناً، اذا لم تشائي ذلك... ولكنه قال...»

فقاطعتها تامسن باسمة وهي تسير معها إلى غرفة الجلوس: «لا بأس، سأجففها بجانب المدفأة.»

كان زاك واقفاً في آخر الغرفة مستنداً إلى رف المدفأة وهو يحدق باكتئاب إلى لهب النيران، كانت افكاره تبدو بعيدة نائية ما جعلها تنكمش على نفسها لا تجرؤ على التطفل على مجرى تلك الأفكار، ولكنه كان قد سبق والتفت بعد ان سمعهما داخلتين.

عندما تقدم نحوهما، رأى الثياب بين ذراعي تامسن فقال مقطباً جبينه: «اظنني قلت لك ان هذه الملابس بحاجة إلى غسيل، يا سيدة ميدوز.»

فقالت تامسن بسرعة: «كلا، لا بأس في ذلك يا زاك، ان

بإمكاني ان اجففها هنا، فأنا سأذهب إلى البيت بعد فترة قصيرة، وهناك...»

«هات الثياب.» وقبل ان تتراجع معارضة، كان قد أخذ الثياب بهدوء، ثم ناولها إلى مديرة المنزل التي كانت واقفة خلفها، وهو يقول لها: «أرجوك ان تتدبري أمرها الآن.»

«حسناً جداً يا سيد ترنشارد.»

ارادت تامسن ان تجادله، ولكنها ما لبثت ان أدركت ان المرأة وراء عملها الرسمي، كانت مرهفة أذنيها لكي تلتقط أي معنى خاص لما بينها وبين زاك، عند ذلك منحتها ابتسامة مشرقة وهي تقول: «شكراً يا سيدة ميدوز هذا لطف بالغ منك.»

«وهل جناح الضيوف جاهز لأجل الآنسة ويستماكوت؟»

«نعم، يا سيدي، فقد جهزتها ماري.»

«حسناً، يمكنك احضار العشاء حالما تعدينه.»

بعد ذهاب السيدة ميدوز تلاشت ابتسامة تامسن وقالت بحزم: «لن ابقى هنا، يا زاك، انني سآكل بعض الطعام ثم اذهب بعد ذلك إلى بيتي.»

قال: «انني آسف، ولكنني لن اخرج مرة أخرى في ليلة كهذه، فاسكتي من فضلك، يا تامي، واقتربي من النار لتدفئي نفسك.»

فابتدأت تقول: «انا...» ولكنه اجبرها على الصمت والجلوس على الكنبة بنظرته الغاضبة والقاسية.

حرك زاك النار، ما اطلق شلالاً من الشرر نحو المدخنة، ثم التفت اليها، ولا بد انه لمح شيئاً في وجهها رغم انها

تعمدت إبعاد كل آلامها عن ملامحها، لأنه سألها قائلاً: «وماذا حدث الآن؟»

كانت لهجته جافة فظة، ربما لم يكن خالياً من القلق أو الإنزعاج، كما كان يبدو، ولكن هذه الفكرة بدلاً من ان تطمئنها، زادت من ارتباكها.

«أنا... أنا...» وحولت عينيها عنه، ثم قالت: «إن يدي تؤلمني.» ولم تكن كاذبة، لأن يدها كانت ما تزال تنبض بالألم. واضافت: «ولكنها ستكون على ما يرام.»

«حسناً، اظن ان غسلها بالماء قد نظف الجرح من كل ما كان علق به من تراب وغيره، سأحضر مرهماً.» ولم تحاول هذه المرة الاحتجاج.

عندما خرج اتكأت إلى الخلف على وسائد الأريكة، ولكي تخفف من ارتباكها، اخذت تتأمل جمال الغرفة حولها، لقد رأت هنا، كما رأت في كل نواحي المنزل، الأعجوبة التي قام بها زاك في هذا التبديل، فقد زيّن الغرفة باللونين الأخضر والوردي من السجادة السميكة الوثيرة إلى الستائر التي تصل إلى الأرض، وأغطية المناضد وخزانة الأدراج الأثرية المصنوعة من خشب الماهوغاني.

«اظن كل هذا نال استحسانك؟»

أجفلت وهي تسمع صوت زاك قادماً من خلفها: «نعم، انه جميل جداً.»

«لقد عرفت بعض هذه القطع، بالطبع، تلك الخزانة هناك مثلاً كانت أمي تضع فيها الأواني المصنوعة من الخزف الصيني، هل تذكرين؟»

نظرت بحدة، انها المرة الأولى التي تسمعه يتحدث فيها

عن أمه منذ رحيلها، ولكن وجهه كان جامداً تماماً. وجلس على الأريكة ثم ناولها انبوب المرهم.

وكان اثناء ذلك يتحدث قائلاً: «ان ذوقي في الأثاث، في الحقيقة يميل إلى الطراز الاسكندنيافي.»

فكرت في ان هذا صحيح، فخشب الساج والجلد الأسود، والخطوط الواضحة المليئة بالحيوية تتلاءم تماماً مع شخصيته.

دخلت السيدة ميدوز تحمل صينية مثقلة بالحساء واللحومات الباردة والسلطة والخبز والزبدة.

وضعتها على المنضدة الصغيرة بجانبهما، ثم ابتسمت لتامسن برقة: «اتشعرين بتحسن الآن يا ابنتي؟ ثم لا تقلقي على جوس.» فأجفلت تامسن وهي تدرك بفزع انها في الواقع، لم تفكر في كلبها مرة واحدة وذلك منذ وصولها إلى هنا.

وكانت المرأة تتابع قائلة: «لقد اطعمته ماري وهو نائم الآن على بساط بجانب نار المطبخ.»

«شكراً، يا سيدة ميدوز، انك تدللينا، نحن الاثنين.»

«آه، ثم يا سيد ترنشارد لقد كدت أنسى في مشاغلي الكثيرة... لقد اتصلت السيدة دايفيز منذ فترة وكانت واقعة في مأزق... ثمة شيء يتعلق بالاحتفال غداً.»

تنهد زاك بشكل مسرحي مؤثر: «آه، لقد ابتدأت اندم على كل شيء لا بأس، سأتصل بها بسرعة الآن.»

تبع مديرة المنزل إلى خارج الغرفة، وبعد ذلك بلحظات سمعت تامسن صوته في الردهة. إعتذار... ضحك... احتجاج... تردد، وأخيراً موافقة ولكنها بالإكراه، ثم حديث

طويل من ناحية واحدة وكله تقريباً من ناحية السيدة دايفيز، كان صوت زاك مهذباً، ولكنها استطاعت ان تميز نبرة الضيق فيه.

عاد أخيراً عابس الوجه، ثم تهالك على كرسي كبير قبالتها ثم نفث نفساً طويلاً.

«آسف لتأخري، كان عليك ان تبدإي بتناول العشاء.»

مد يده يجر المنضدة ليضعها بينهما، ثم ناولها صحفة الحساء، فتناولتها منه وهي تسأله بفضول: «هل هناك مشاكل؟»

بدا عليه وكأنه يهم بقول شيء، ولكنه عاد فغير رأيه: «كلا، في الحقيقة، كانت تسألني فقط تأدية خدمة وهذا كل شيء.»

فقالت بإصرار: «ولماذا هذا الاحتفال إذن؟»

«لماذا هذا الاحتفال؟ وأين كنت طوال الاسابيع الماضية، إذن؟ ألم تري الاعلانات في كل مكان؟»

أجابت بشيء من العنف: «كنت مشغولة جداً.»

فرفع يده يهدئها: «لا بأس، لا بأس، على كل حال فهو عيد مايو طبعاً... اننا سنحتفل به هنا في بيتي، بدلاً من قاعة القرية.»

«ماذا؟» وسال الحساء من ملعقتها.

«ولماذا لا؟ وبعد فقد كانت العادة دوماً ان يقام الاحتفال بهذا العيد هنا، أليس كذلك؟»

قالت ببطء وهي تنتقي كلماتها بعناية: «حسناً، نعم، ولكن ذلك لم يحدث منذ سنوات.»

«هذا صحيح، فأنا اعرف ان أبي لم يكن يحب ان يزعج نفسه بذلك، ولكن حسناً، دعينا نقل فقط انه عندما طلبت

السيدة دايفيز ذلك مني، لم استطع مقاومة تأدية دور سيد الاحتفال. ولو مرة واحدة.» وابتسم برقة: «على كل حال ستكون الحفلة في قاعة الاحتفالات القديمة، إذا كان الفناء حيث تقام عادة مبتلاً بالماء، ولكنه سيكون جافاً، كما اكدت لي السيدة دايفيز.»

وسكت، ثم سألها: «هل أنت قادمة؟»

«حسناً، لست واثقة.» لم تكن حضرت احتفالات، في الواقع منذ رحيل سارة، وهي طبعاً لن تحضر هذه السنة، إذا كانت الحفلة ستقام هنا، فقال باسماً: «بل تعالي، حيث انني أؤدي دوري الجديد بصفتي لورد أف لسكومب، وقد أفتتح الاحتفال معك.»

هزت تامسن رأسها بحزم: «كلا... لا يمكنك هذا أبداً، فأنت تعلم ان الممثل المختار في التمثيلية التي تقوم عليها الحفلة، دوماً يختار فتاة لهذا الأمر.»

فقال متهكماً: «آه، نعم هذا صحيح، فقد نسيت وعلينا ان لا نتدخل في أي من هذه الممارسات السخيفة، أليس كذلك؟»

قالت بذعر: «سخيفة؟ عليك ان لا تقول كلاماً كهذا، يا زاك.»

فقال بسخرية واضحة: «آه، دعك من هذا، يا تامي، لا اظنك تصدقين حقاً مثل تلك الأقوال التافهة عن ان الاحتفال بعيد مايو يجلب الحظ إلى لسكومب لمدة عام؟»

لكن تامسن هزت رأسها بعناد: «لا أدري، يا زاك، ماذا بالنسبة إلى ما حدث منذ سنوات عندما طلب مختار القرية من القرويين أن يحتفلوا في مروج القرية بدلاً من الاحتفال

به هناك عند رجل لسكومب كالعادة، فإذا بكل المواشي تموت و...»

فقهقه زاك ضاحكاً: «يا لك من قروية صغيرة تؤمن بالخرافات.» ولكن عندما نظرت بعناد، قال: «حسناً، صدقيها، إذا شئت، والآن اتريدين مزيداً من اللحم؟»

أومأت برأسها رافضة. فتابع: «كلا؟ سأطلب القهوة إذن.»

مد يده إلى جرس موضوع على رف المدفأة، وبعد ذلك بلحظات دخلت مديرة المنزل بصينية القهوة وعليها طبق مليء بقطع حلوى بالشيكولاته.

اخذ زاك القهوة منها: «شكراً لك، سأتدبر أمرها بنفسي.»

تابع زاك كلامه موجهاً الحديث الى تامسن:

«حسناً، المفروض ان هذه التمثيلية ما زالت من بقايا الاحتفالات القديمة، أليس كذلك؟»

«التمثيلية؟ وما شأنها؟»

«لا بد انهم في غابر الزمان، كانوا يحتفلون بشكل أوسع كثيراً من هذا الاحتفال المختصر الذي تقوم به القرية، والذي يفتتح الاحتفال هو مختار القرية، وذلك مع الفتاة المحظوظة التي يختارها كعروس تلك السنة، حسناً أعني...»

وبسط يديه بإشارة معبرة فقضمت بسرعة لقمة من الخبز المغطى بالزبدة، دون ان تقابل نظراته. أخذ زاك يرشف قهوته مفكراً، وجلس الاثنان صامتين عدة دقائق، ولكن في النهاية وتحت ستار رفع فنجانها إلى شفتيها، نظرت اليه خلسة.

كان يحدق في السجادة بذهن غائب، كان نصف وجهه يتألق بوهج نيران المدفأة ما بدا معه صبيانياً تقريباً. اما

النصف الآخر فقد كان في ظل داكن. إن هذا الرجل والذي كانت تراه غريباً ومألوفاً في نفس الوقت، ينتمي إلى نفس القرية التي تنتمي هي اليها، ولكنه هو قد ابتعد عنها...

وإذ اخذت تحدق اليه من تحت اهدابها، عاد إليها ذلك الألم العميق الذي أصبح جزءاً من كيانها كالتنفس تقريباً، ان هذا النوع من الآلام لم يخترعوا له دواءً يقضي عليه، بعد.

أدركت ان زاك كان يراقبها، وكان وجهه الآن محتجباً بإحدى ذراعيه التي كان ثناها تحت رأسه ما جعلها تخفق في رؤية التعبير الذي كان على وجهه، ولكن كان في جموده هذا ما أثار قلقها وارتباكها.

سألها فجأة: «اتريدين مزيداً من القهوة؟»

«كلا، شكراً.»

سادت بينهما لحظة صمت اخترقها بقوله بصوت أبح: «تامي؟» وعندما نظرت اليه رأت التعبير البادي على وجهه... كان مزيجاً من الإرتباك والعجب، وهو ما كانت لمحته في وجهه مساء أمس.

«نعم، يا زاك.»

جلس عابساً يتأمل في بقعة ما بين الكرسي والجدار المقابل وذلك مدة بدت لا نهائية، وأخيراً اخترق ذلك الصمت بقوله: «اتعلمين، يا تامي؟ اظن ان عليك ان تتزوجيني.»

الفصل الحادي عشر

اجفلت تامسن قائلة: «ماذا؟»

«قلت أظن أن عليك أن تتزوجينني.»

وعندما استدارت وقد اتسعت عيناها من شدة الدهشة، قال زاك بابتسامة باهتة: «حسناً، قولي شيئاً.»

«ولكن، لماذا؟»

فهز كتفيه بشيء من الضيق: «آه، لأن... لأن... هل أنت حقاً بحاجة إلى سبب؟»

«نعم، بالطبع.» وكان ذهولها قد بدأ يتبدد بسرعة إزاء واقعيته المجردة من العاطفة، ليحل مكانه شعور أقرب إلى الاستياء.

اجاب قائلاً: «لابأس، إذن دعينا نقول فقط ان هذا أمر جيد لنا، نحن الاثنين.»

«ولكنك...» سكتت وهي تعض شفتها كانت تريد أن تقول له: (ولكنك لا تحبني) ولكنها لا تريد منه تأكيداً كاذباً بأنه يحبها، بينما هي تعلم جيداً حقيقة مشاعره نحوها.

وعادت تقول: «كلا، لا يمكنني أن أتزوجك طبعاً.»

ولكن، أليس هذا ما كانت تحلم به منذ عرفت الأحلام.

«آه، دعي عنك هذا، يا تامي... فأنت بإمكانك طبعاً أن تتزوجيني.» نظر برقة وقال باسماً: «إنك لن تكوني تعيسة معي، أليس كذلك؟»

بل ستكون تعيسة حقاً... فهناك العذاب، وفي كل يوم من

أيام حياتها، فان تحبه، مدركة انه لا يحبها، وأنه تزوجها شفقة فقط... ولكن ألا يستحق الزواج من زاك كل ذلك الألم؟

قال لها وهو ينظر بوجه خال من التعبير: «ماذا؟» ولكنها من وراء كلمته هذه أحست بفروغ صبره.

قالت: «إسمع، لا يمكنني أن اعطيك جوابي الآن. عليك أن تمنحني بعض الوقت.»

«لن امنحك ثلاثة أيام هذه المرة. إنني امهلك إلى الغد... وأريد الجواب اثناء الاحتفال.»

كان هذا أمراً حسناً، بالنسبة إليها. فهي لن تذهب إلى الاحتفال على كل حال، وهذا سيمنحها وقتاً اطول، على الأقل. أومأت ببطء ثم تثاءبت: «أحب أن أذهب لارتاح، إذا لم يكن لديك مانع.»

« بالطبع، تصبحين على خير.»

وعندما اضاءت النور في جناحها، أخذت تجيل نظراتها في أنحاء المكان. كانت مؤثثة بشكل جميل وعصري، فالستائر منقوشة بالأزهار بشكل بديع وتتلاءم مع غطاء السرير. وكانت بجانب النافذة أريكة منجدة بالقطيفة الوردية اللون وعليها كانت ملابسها مغسولة ومكوية.

أرهفت أذنيها ووقفت تستمع إلى وقع خطواته في الممر، ثم انفتاح باب وانغلاقه مرة أخرى. ومن ثم أخذت تروح وتجيء في غرفتها وقد تملكها القلق وعقدت ذراعيها على صدرها.

وإذا بها تجمد مكانها بعد أن داست على لوح خشبي قديم فتصاعدت قرقعته تحت قدميها. فقد خافت أن يسمع

زاك ذلك فيأتي لسؤالها عن سبب هذا الصوت، وعندما لم يحدث شيء، سارت على أطراف اصابعها.

* * *

كان ضوء النهار الشاحب يتسلل إلى الغرفة من خلال فتحة صغيرة بين الستائر، فنهضت ثم تقدمت نحو النافذة حيث ازاحت الستائر واتكأت على عتبتها الواسعة، رأت في ناحية من الفناء خيمة كبيرة مخططة باللونين الأبيض والأزرق. قد تكون هذه خيمة المرطبات للاحتفال. إذا هي قالت نعم لزاك، فقد، بل من المؤكد، أن يعلن الخطبة أثناء الاحتفال، وستعم البهجة القرية بأكملها لأجلها...

لكن ما الذي جعل زاك يعرض عليها الزواج؟ والصقت تامسن جبينها على زجاج النافذة البارد.

مهما يكن مبلغ حبها له وحنينها إليه، فزواج من دون حب هو، بالنسبة إليها، ثمناً باهظاً عليها أن تدفعه. ولكنها كانت تتراجع خائفة من مجرد التفكير في مواجهته، ومن حسن الحظ أنه منحها هذه الساعات القلائل مهلة.

ألقت نظرة على الفناء متصورة نفسها تقف بجانب زاك في الحفلة التي ستقام هذه الليلة، بينما هو يعلن خطوبتهما... ولكنها ما لبثت ان استدارت مبتعدة إلى حيث هبطت السلم.

والذي كانت درجاته تقرقع مع كل خطوة، فحبست انفاسها كيلا يسمعها زاك. ولكن المنزل بقي ساكناً وترددت عندما وصلت إلى الردهة.

جوس... هل تتركه وترحل طالبة من ماتيو احضاره

فيما بعد؟ أم تجازف بجعل زاك يشعر بذهابهما معاً؟ وبينما كانت تقف حائرة، سمعت صوتاً خفيفاً يصدر من أعلى فوق رأسها، فاندفعت إلى الباب ورفعت المزلاج ثم فرت هاربة.

* * *

كان ماتيو في الفناء وقد أسند عجلته إلى جدار الإصطبل.

«صباح الخير، يا تامسن هل أنت بخير الآن؟»

«نعم، شكراً أنا بأحسن حال.»

«هذا حسن كنت أعلم ان السيد ترنشارد سيهتم بك. ولكن لم يكن بك حاجة إلى الاسراع في العودة فقد قمت بكل الأعمال المتوجبة.»

«شكراً، يا ماتيو لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونك.»

بدا عليه الارتباك، وقال: «على كل حال، أنا ذاهب الآن... إذ علي أن احضر كمنجتي وعباءتي للاحتفال. سأراك، إذن، فيما بعد.»

قالت بلهجة مترددة: «آه، حسناً، أنا لست واثقة في الحقيقة من أنني سأحضر الاحتفال.» ولكنه كان قد ابتعد فلم يسمعها.

لكن، ربما ستذهب في النهاية إلى عيد ايار (مايو)، على كل حال. وربما سيكون هذا أفضل لها، ذلك أنها باختفائها من بيته الساعة الخامسة صباحاً، قد يأتي زاك إلى بيتها في أية لحظة، لكي يعرف ما الذي يدور في ذهنها. وفي

مكان الاحتفال ستجعلها كثرة الناس في أمان من الحاحه والناس جميعاً تنظر إليه.

صنعت لنفسها فنجان شاي وبعض الخبز المحمص وبعد أن اقفلت الباب الأمامي كيلا يفاجئها أحد، صعدت إلى غرفتها ثم اخرجت من الخزانة الثوب الذي ما زالت ترتديه كل عيد منذ كانت في الثالثة عشرة. وكان مصنوعاً من ثوب عرس والدة سارا الحريري، وكان لسارا في البداية ولكنها عندما اصبحت طويلة القامة ممتلئة الجسم، اعطته والدة سارا لتامسن ذات القوام الاصغر.

اخرجته من جوف الملاءة القديمة التي كان ملفوفاً بها بكل عناية، ثم ارتدته وبعد ذلك التفتت إلى المرآة لتلقي على نفسها نظرة شاملة.

كان الثوب ينسدل إلى كاحليها بثنيات مطرزة باللآلىء. وعندما أخذت تصلح من ثنيات الثوب، رأت قرب الخصر المزق المرفو بشكل جميل. أخذت تنظر إليه... لقد كانت... ماذا؟... في الرابعة عشرة وكانت في الاحتفال السنوي المعتاد عندما جذبها زاك فجأة ممازحاً فتسبب في هذا المزق الضئيل في الثوب لقد قالت له عند ذاك: «لا بأس، إن رفوه سهل للغاية.»

نعم، أسهل كثيراً من رفو القلوب...

لبست حذاءها الأبيض الخفيف، وحملت شال جدتها القديم الجميل، ثم هبطت السلم.

* * *

كان معظم القرويين هناك يروحون ويجيئون على

العشب، وقد بدوا كالأقزام بجانب الحجر الصواني والمسمّى (رجل لسكومب) فسارت تامسن بينهم، حيث أخذت تحيي وتتلقى تحيات الناس الذين عرفتهم طوال حياتها، وأخيراً انضمت إلى مجموعة من الفتيات والنساء الشابات. وكن جميعاً في ملابسهن البيضاء التقليدية.

جلسن جميعاً معاً وأخذت ينظرن إلى زوجة مختار القرية، وقد بدا عليها الضيق أكثر من المعتاد، وهي تقود تلامذة مدرسة الأحد إلى بقعة محاطة بالحبال، فأجلستهم فيها. وسحب أحد الآباء آلته الاكورديون وأخذ يعزف عليها.

ولكن، بينما انتباه الآخرين كان موجهاً إلى اولئك الأطفال الرزيني الوجوه وهم يؤدون رقصات الدبكة القروية واحدة تلو الأخرى، كانت عينا تامسن تبحثان بين الجموع. ولكن زاك لم يكن هناك. ربما أصبح متعالياً على مثل هذا الاحتفال كما اصبح متعالياً على كل شيء آخر... فهذا احتفال تقليدي تافه... حسب قوله. وهكذا أخذت تشعر بالراحة شيئاً فشيئاً مستمتعة بهذه الموسيقى المألوفة ودبكة الأطفال.

تلاشى التصفيق وران الصمت على الجموع حين جاء صوت موسيقى من وراء التلة لتظهر بعد ذلك فرقة رجال لسكومب للدبكة الشعبية يقودها ماثيو مرتدياً عباءة جده بتطريزها الرائع الجمال وهو يعزف على كمنجته ذلك اللحن الغريب الموحش. وبعد ذلك تبعهم سيد الوعول وقد وضع سلسلة على رأسه تتصاعد منه قرون الوعل المتشعبة.

منذ كانت تامسن طفلة صغيرة، كان جسمها يقشعر رعباً كلما دخلت قاعة الاحتفالات في القرية، ورأت هذه الملابس التقليدية معلقة في ركن خاص، بأشكالها الفضفاضة، واقنعة الوعول المتدلية منها قرونها الضخمة، تحدق فيها. فكيف بها الآن وهي ترى رجلاً بداخلها ما يجعلها أكثر تخويفاً وهو يتبختر بها بين صفين من الرجال العازفين؟

قالت تامسن لفتاة بالقرب منها.

«إنه يبدو جيداً هذه السنة، أليس كذلك؟»

فابتسمت الفتاة وهي تتبادل معها نظرة ذات معنى:

«حسناً، هذه ما تظنه جوانا بكل تأكيد.»

إذن، فلاعب دور سيد الوعول هذه السنة هو دارن ييتس، خطيب جوانا. وفي التقاليد، ينبغي أن تكون هوية لاعب هذا الدور، والذي هو رجل مختلف في كل عام، ينبغي أن تكون سراً ولكن من المعتاد أن يعلم بذلك الجميع، كما كان معروفاً أنه سيختار فتاة لتكون العروس.

أصبح عزف ماثيو أكثر ارتفاعاً، وإلحاحاً عندما خرج من بين فرقة رجال لسكومب رجل يرتدي ثياب الجندي حاملاً السيف والدرع. وشيئاً فشيئاً تقدمت الفرقة إلى الداخل مشكلة حلقة أخذت تضيق تدريجياً حول الوعل حتى لم يعد يبدو منه سوى الرأس والكتفين، ثم عاد البقية إلى الخلف ليقفز الجندي إلى الأمام، وإذ تملك تامسن ذلك الشعور المألوف من الخوف والبهجة معاً، ضرب هو الوعل، ثم رفع يده بالرمح الخشبي، والذي كان حقيقياً تماماً قبل خمسة آلاف عام، وعندما شهق المتفرجون بشكل

لا إرادي أهوى بالضربة النهائية المميتة. فارتجف الوعل وسقط ثم أخذ يتدحرج مرة بعد مرة إلى أن هدأت حركته.

صاحت تامسن تخاطب جوانا رافعة صوتها فوق ضجة التصفيق: «إنه رائع حقا، يا جوانا.» فقد أدى دارن دوره بشكل ممتاز.

«والآن، هيا اذهبن، يا بنات.»

وابتدأت السيدة دايفيز بدفعهن جميعاً نحو الحجر حيث أخذن وهن يكتمن ضحكاتهن، بتشكيل حلقة حوله. وإذ وجدت تامسن نفسها بين جوانا وأختها الصغرى، إذا بسيد الوعول والذي كان عاد ونهض مجدداً، إذا به يثب إلى وسط الحلقة. وكن جميعهن يمسكن بأيدي بعضهن بعضاً، بينما أخذ عزف ماشيو يتغير إلى نغم أكثر انخفاضاً وحنيناً.

أخذ الحيوان الضخم يتبختر في مشيته وهو يدور في الحلقة مرة بعد أخرى، ويقوم بالركض مهدداً، نحو كل فتاة بينما كان رجال فرقة لسكومب مصطفين خلفه، ما جعل تامسن تتذكر فجأة أحد الصور البدائية في الكهوف لهذه الحيوانات.

وفجأة، إذا به يندفع نحوها كلياً وقد حنى رأسه الضخم فتفادته مبتعدة عنه وهي تضحك. ولكن بعد لحظة وهي تعود إلى المجموعة مرة أخرى، هجم نحوها الوعل مرة أخرى.

قالت بصوت منخفض:« دارن، أيها الغبي إنك ارتكبت غلطة، فأنا لست...»

وجاءها صوت من تحت القناع: «أسكتي يا تامي، من فضلك.»

جمدت مكانها وقد تملكها الرعب ثم قالت: «سوف أذهب.»

«كلا طبعاً.»

«هيا، يا تامي استمتعي بهذا الموقف.» كان يضحك منها. فهذا كله مجرد مزاح بالنسبة إليه.

قالت: «كلا، لا أريد أن استمتع بذلك. تباً لك.»

كان الجميع حولها يهتفون لها وضحكاتهم تتلاحق. احمر وجهها خجلاً، وإذ لم تستطع ان تواجه ضحكاتهم ومزاحهم، ولت هاربة.

• • •

جاء، كما كانت توقعت. وأخذت تنظر إليه، مقاومة الرغبة في أن تستدير وتهرب مرة أخرى، وهو يتقدم مخترقاً اغصان الأشجار المتدلية.

«لماذا هربت؟» كان صوته رقيقاً.

فهزت كتفيها قائلة: «لا أدري.» ولإخفاء ارتباكها، التقطت حصاتين وألقت بهما في الجدول.

«أرى أن مفاجأتي الصغيرة لك لم تعجبك.»

«كلا، في الحقيقة. وأظنني فقدت روح الفكاهة أو ما أشبه.»

«آه، يا تامي.» وجلس على العشب قرب الجدول: «إنني آسف إذ سببت لك الاستياء، ولكن السيدة دايفيز كلفتني بذلك العمل الليلة الماضية. فذلك الأحمق دارين كان سقط عن دراجته البخارية، فتملكها القنوط. وكنت على وشك أن اخبرك بعد ان اتصلت بي، ولكن كان المفروض أن يبقى

الأمر سراً، وعندما رأيتك في الاحتفال هذا الصباح. حسناً، لم استطع مقاومة اختيارك.»

ابتسم وهو يتابع: «يجب أن تعترفي بأن تمثيلي كان جيداً. لقد أكد ماثيو بأنني كنت أفضل من مثّل هذا الدور.»

«نعم، حسناً، دوماً كان ماثيو رجلاً بسيطاً سهلاً.» قالت ذلك باستهزاء، ولكنه رفض أن يسكت، فتابع يقول: «وعلى كل حال، فهذه كانت افضل طريقة لتكوني مرافقتي في حفلة اليوم.»

«إنني لست ذاهبة إلى الحفلة، يا زاك.» وأخذت تحدق في مجموعة من زهرة الربيع على الضفة المقابلة للجدول.

«لماذا لن تذهبي؟»

«لنفس السبب الذي جعلني أترك بيتك هذا الصباح.» والتفتت الآن تنظر بثبات ثم تابعت تقول: «لا حاجة بك للانتظار حتى هذه الليلة لتأخذ الجواب، يا زاك، فأنا لن اتزوجك.»

«وهل هناك سبب معين؟»

«لأنك... لأنك لا تحبني.»

فقال ببطء: «فهمت. حسناً، أظنني لا استطيع أن الومك لظنك هذا... بينما حتى أنا لم استطع أن أراه في نفسي.» أكانت كلماته هذه، أم ذلك التعبير في عينيه هو الذي جعل قلبها يخفق بجنون؟

«كلا، يا تامي، فأنا لم استطع أن افهمك.»

وتابع يقول عندما رآها تنظر بحيرة: «فبعد أن كنت تلك

الطفلة المثيرة للغيظ والسخط والضيق، والتي كانت مألوفة لديّ بقدر... نفسي ذاتها، أصبحت شابة يانعة.»

كان رأسها منخفضاً الآن، ولكنه، وبرقة زائدة، تابع كلامه:

«في كل مرة كنت أراك فيها، كان يتملكني شعور غريب لم افهمه... حتى أمس عندما رأيتك متكورة على نفسك على تلك الصخرة تملكني رعب بالغ لأجلك، مدركاً فجأة أن حياتي لا يمكن أن تعود أبداً إلى حالتها الطبيعية من دونك، حتى في تلك اللحظة، لم أفهم كنه هذا الشعور.»

ابتسم بأسى: «وليلة أمس، قلت لنفسي بثقة: هيا، أيها الولد الغبي، لقد حان لك أن تعلم ما تريده بالضبط. عند ذلك، أدركت فجأة...»

وعندما سكت، لم تجرؤ تامسن على التنفس ثم قالت: «ما الذي أدركته؟»

«أنني أحبك... وأنني أريد أن أصرخ أمام العالم أجمع، بذلك. تزوجيني يا تامي وإلا جننت.» ثم سألها بلهجة متوترة: «ماذا ستقولين؟»

«آه، يا زاك.» منحته أرق ابتسامة وما لبثت أن علمت الجواب والذي انقبض له قلبها: «كلا... لا استطيع.»

«لماذا؟ إنك تصدقينني، أليس كذلك؟»

«نعم، يا زاك، فأنا اصدقك. ولكن... سارا.» ولفظت اسمها بصعوبة بالغة.

نظر إليها بحيرة: «سارا؟ ولماذا تمنعك سارا من الزواج بي؟»

لماذا؟ إنه ما زال لا يستطيع أن يفهم. وعادت تشعر بتلك الغصة في قلبها.

قال لها بسرعة: «اسمعي يا تامي... إنني أعلم تماماً كم كانت سارا تعني لك. ولكنك لا يمكنك أن تمضي بقية حياتك في حالة حداد عليها. فهي نفسها لا تريد لك ذلك، صدقيني.»

«كلامك صحيح، ولكن إذا كنت تظن أنني استطيع أن أتزوج الرجل الذي حطم قلبها...»

قاطعها بعجب: «ماذا؟ ما هذا الذي تتحدثين عنه؟»

فقالت: «أنت وسارا، طبعاً.»

«أخبريني عما تعنين، يا تامي.» وكان صوته هادئاً إلى حد خطر.

أجابت بخشونة: «لا بأس، إذا كان علي أن أقوله لك. لقد وعدتها بالزواج، ولكنك رحلت من دون أية كلمة، لقد تحطم قلبها، يا زاك.»

كان الغضب قد تلاشى من صوت تامسن ولم يبق سوى الألم والحزن.

«انظري إليّ.» وعندما استمرت تنظر إلى الأرض، قال بعنف:

«انظري إليّ، تباً لك. لم اعدها بشيء صدقيني.»

احمرت وجنتاها غضباً: «لقد أخبرتني بنفسها...»

«أقسم لك بشرفي، يا تامي، بأننا لم نكن لبعضنا سوى محبة اخوية، فأنا لم أكن اعتبرها أكثر... أكثر من مجرد فتاة عرفتها طوال حياتي.»

«ولكن... ولكن تلك الليلة التي رحلت فيها...» سكتت

فجأة وقد تملكها العجب رغم أنها ما زالت وفية لصديقتها بشكل عنيف.

فقال: «لا بد أنك كنت تعلمين تماماً أن سارا كانت فتاة خيالية، أليس كذلك؟ لم تكن تعيش في العالم الواقعي... بل كانت تعيش في الخيال حيث كانت ترى نفسها بطلة على الدوام... ولا أدري أية قصص ألقمتك إياها...»

سكت بدوره فجأة، كان كلامه صحيحاً... لقد أدركت ذلك الآن. فهمته، ولكن مع ذلك... حتى صباح يوم الزفاف... أثناء ذلك المشهد الذي حدث بينهما في بيت سارا... كان هنالك شيء غير طبيعي بالنسبة إليها... كانت كأنها تقوم بدور تمثيلي أمام متفرجين غير مرئيين ولكن، مع ذلك...

مد يده يقطف زهرة ثم اعطاها اياها وهو يقول: «هذه زهرة لأجل عروس سيد الوعول.» ثم اردف قائلاً: «حان الوقت للذهاب.»

« ولكنني أريد أن أبقى هنا طوال النهار.»

هز رأسه بحزم: «كلا، فسأعيدك إلى البيت. لقد تركت جوس يروح ويجيء في الردهة، مقتنعاً تماماً بأن شيئاً هائلاً قد حدث لك.»

«هذا صحيح، ألم يحدث لي شيئاً هائلاً، فعلاً؟ ليس كل يوم يختطف سيدالوعول عروساً.»

«لا تذكريني، فقد كان ذلك التقليد عبئاً ثقيلاً تماماً عاندتني فيه العروس بإرادة بالغة.» قال ذلك ضاحكاً، ولكنه ما لبث أن قال بجد: «وعلى كل حال، أريد أن آخذك إلى مدينة توربي عصر هذا اليوم.»

فأجفلت: «آه، أتعني...؟»

«نعم، لكي تقابلي أبي. إنه متلهف تماماً لعقد صلح معك.»

ترددت تامسن لحظة واحدة، ابتسمت بعدها قائلة: «نعم، طبعاً يا زاك. يسعدني جداً أن اقابله.»

وعندما نظرت الى الزهرة التي في يدها حدقت إليها لحظة ما لبثت بعدها أن رفعت يدها إلى فمها وهي تشهق بذعر.

«آه، كلا... إنه سيجن.»

سألها باستغراب: «من تعنين؟ ماذا حدث؟»

فقالت وهي تنهض بسرعة: «برايان. آه، لقد كنا جالسين عليها طوال الوقت.» وأخذت تصيح نادبة: «إنه سيظن إنني فعلت ذلك عمداً، وسأنتهي في السجن، أو إلى شيء مريع.»

وعندما صدرت عنها ضحكة متوترة، رأت زاك ينظر إليها بعجب، فقالت وهي تشير إلى الأزهار المسحوقة: «إنها أزهار (سبيرانتس استيفاليس).»

«ماذا بشأنها؟»

«إنها نادرة جداً إلى درجة أنها قد انقرضت عملياً.»

وأضافت نائحة: «إن هذه البقعة التي تنمو فيها معتبرة الآن ارض محمية للعلم.»

«حسناً، يوجد منها الكثير على طول جدول المياه هنا. وبرايان الذي تتحدثين عنه، لن يهتم بفقد هذه الزهرات القلائل.»

وللمرة الثانية، رفعت تامسن يدها إلى فمها وهي تنظر إليه وقد اتسعت عيناها بشعور الذنب: «كنت أريد أن

أخبرك، ولكنني نسيت، ليس بإمكاني أن استغل الغابة بعد الآن، فهم سيضعون أمراً لحمايتها وستكون منطقة محمية.»

«ماذا؟ لن يحدث فيها «لعبة الحرب.» بعد الآن؟»

«ليس بالنسبة إلى الغابة.»

فقطب جبينه قائلاً: «هذا يعقد الأمور، وإذا لم استطع استغلال الغابة...»

سألته بقلق: «إن هذا... هذا لن يعطل العمل، أليس كذلك يا زاك.»

أجاب مفكراً: «حسناً، إنني غير واثق...» ولكنه عاد فانفجر ضاحكاً وهو يقول: «آه، يجب أن لا اغيظك أكثر من ذلك، فهذه المسألة لن تعطل العمل طبعاً... فأنا لا يهمني ولو كان هناك مئات من اوامر الحماية ملصقة في هذا المكان. وعلى كل حال اما أن نقيم الالعاب حول المكان وإما أن ننقل المجموعات بطائرة الهيلوكوبتر من فوقه حتى ان هذا سيمنحهم مزيداً من البهجة.»

«إذن فما زلت تريد أن تتزوجني... حتى بدون ارضي الغالية؟»

«حاولي فقط أن تمنعيني.»

* * *

سارا معاً بين أشجار النخيل والاجمات العطرة الرائحة والتي تفصل البحيرة عن الفيلات المغطاة بالقش والتي تنتشر بين اشجار الجاغاراندا مشكلة مجمع الفندق.

على عتبة فيلتهما، وقفا يستمتعان بالمناظر والروائح العطرة، بينما يلف الكائنات الشفق الافريقي الدافىء. ومن خلف صف النخيل كان المحيط الهندي ترتطم أمواجه المزبدة برفق على الرمال البيضاء.

تنهدت تامسن بسعادة: «إنه أشبه بالأحلام، أليس كذلك؟ دوماً أفكر فيما لو قرصت يدي، أتراني استيقظ.»

«إن زواجنا ليس حلماً، إلا إذا كنت أنا شريكاً فيه نفسه.»

«معك حق، فهذا ليس حلماً.» وبسطت يدها تبدي خاتم زواج عريض من الذهب في إصبعها، ثم ابتسمت له بشيء من الخجل: «لا يمكن أن يكون هذا حلماً.»

«إنك تعرفين الآن لماذا لم أشتر خاتم زواج لك قبل سفرنا.»

«لقد ظننت، بالنسبة إلى كل الترتيبات التي كان علينا أن نقوم بها في فترة قصيرة...» وكانت ما تزال تتذكر السرعة والكفاءة اللتين قام بهما زاك بكل هذه الأمور، وهي تكمل قائلة: «ظننت أنك نسيت.»

«وهل أحببت ذوقي حقاً؟ لقد كنت رأيت هذه الزمردات عندما كنت هنا في مومباسا السنة الماضية، ولكنني لم أفكر حينذاك بأنني سأضع واحدة منها في اصبعك.»

عندما رفعت يدها، تألق الحجر الكريم الرائع

مرسلاً أشعة نارية منعكسة من الأنوار خلفهما.

ثم قالت بخجل: «نعم، إنها رائعة. شكراً يا زاك.»

«إنها رمز حبي.»

شكرته مجدداً: «وكذلك شكراً لك لقولك إننا سنسكن في المزرعة.»

فهز كتفيه: « أنا أعلم ما يعنيه ذلك المنزل القديم بالنسبة إليك، وذلك أكثر كثيراً مما يعنيه منزلي بالنسبة إليّ. أتحبين أن نمضي في هذا المكان أسبوعاً آخر؟ بإمكاننا ذلك، إذا شئت.»

فقالت بسرعة:

«آه، كلا يا زاك. إنني أعلم أن عليك أن تعود.»

قال مازحاً: «بينما أنت لا يهمك رؤية مزرعتك الغالية ويذرتور مرة أخرى.»

ابتسمت بشيء من الخزي: «حسناً، كنت اتساءل عن ماثيو كيف يسير عمله... وجوس طبعاً.» وسكتت برهة ثم سألته: «هل كنت تعني حقاً أن بإمكاني أن لا ابيع الأغنام؟»

«طبعاً بإمكانها جميعاً أن تعيش عمرها الطويل بسعادة. رغم إنني سأصبح اضحوكة القرية وهم يتحدثون عني. زاك ترانشارد؟ آه، لقد افقدته زوجته عقله.»

«نعم، ولكنني لم أخبرك... فقد خطرت لي فكرة رائعة وهي الزراعة. إنها الطراز الشائع الآن. والناس تدفع ثمن الخضر من دون مساومة، و...»

«لا بأس، لابأس، وأنا أيضاً خطرت لي فكرة رائعة عن

كيف ان تلك الغرفة في الطابق العلوي تصلح لتكون غرفة اطفال ممتازة، وهكذا، لا تشغلي نفسك بوضع خطط للمزرعة اكثر مما ينبغي.»

تمت

www.elromancia.com
مرمورية